

سلسلة الأئمة المصورة (2)



الإمام الشافعي

السيرة المصورة

أول كتاب مصور لتاريخ الإمام الشافعي

د. طارق السويدان

الدروس والعبر من السيرة الكاملة لحياة الإمام ومسيرته العلمية



هذا الكتاب:

- يعرفك بشخصية فذة فريدة كان لها أثرها في التاريخ والفقه الإسلامي وهو الإمام (الشافعي) ويبين لك بالتفصيل كل جانب من جوانب حياته الشخصية والعامة.
- المؤلف لم يتبع الطريقة التقليدية في سرد الترجمة والتعريف إنما حلل الأحداث واستخرج العبر من كل حادثة ليخرج القارئ بفائدة علمية وإيمانية من قراءة الكتاب.
- الكتاب مدعم بالكثير من الرسومات المحترفة والمبدعة لتلك الحقبة الزمنية وأشهر شخصياتها وهي مستوحاة من الأوصاف الدقيقة التي نقلها المؤرخون.
- كما وضعت عبارات ملخصة لكل فقرة تعين القارئ على سرعة الحصول على المعلومة وتثبيتها، وإن كانت لا تغني عن قراءة الكتاب كاملاً.
- لم يكن المقصود من تعريفنا بسيرة الإمام الشافعي مجرد السرد التاريخي لكننا أردنا أن نستنهض الهمم ونحيي العلاقة بيننا وبين تراثنا الإسلامي وشخصياته العظيمة مع تفهمنا لتغير الأدوات والوسائل بتغير العصور والأزمان.


ISBN 978999066192-7
9 789990 661927



مبرة بدور الخيرية
إشراقة في ليل الحاجة



رحمه الله تعالى

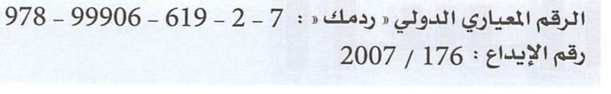
تأليف د. طارق محمد السويدان

مدير المشروع: أحمد علي شربجي

إعداد وتنفيذ: منى دقاق

رسومات: د. ياسر نصر

تصميم وإخراج: رمزي فيصل الهريمي



الرقم المعياري الدولي « ردمك » : 7 - 2 - 619 - 99906 - 978

رقم الإيداع : 176 / 2007

الناشر



شركة الإبداع الفكري للنشر والتوزيع - الكويت

e-mail: info@ebdaaco.com - www.ebdaaco.com

هاتف: 22404854 - 22404883 - فاكس: 22404852

ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

الطبعة الأولى
جمادى الآخرة 1428هـ
يوليو (تموز) 2007م

الطبعة الثانية
جمادى الآخرة 1431هـ
يونيو (حزيران) 2010م

الطبعة الثالثة
شعبان 1433هـ
يونيو (حزيران) 2012م



إلى

منارات العلم والإشعاع .. شبابنا الرائع المفعم بالأمل والإشراق .. الذين نرى طموحهم بهم، قادة المستقبل، ومنارات العلم والهدى..

أهديكم جميعاً سيرة الإمام الشافعي، إمام العلماء، وزعيم الفقهاء والنجباء ..

أخوكم

د. طارق السويدان





مبرة بدور الخيرية

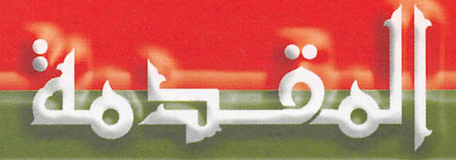
إشراقة في ليل الحاجة

لقد كان من شأن أصحاب الأيادي البيضاء دائماً أن يساهموا في نهضة هذه الأمة، ويبذلوا الغالي والرخيص من أجل رفع مستوى ثقافتها ووعيها..

ونحن نتوجه بالشكر العميم، والدعاء الصادق، إلى الإخوة في مبرة بدور الخيرية، ونخص بالذكر الأخ الفاضل أيمن بودي وعائلته الكريمة على رعايتهم ودعمهم لهذا العمل، وهذا عهدنا بهم دائماً في دعم كل عمل مبدع لخدمة هذا الدين العظيم، راجين الله تعالى أن يثقل موازينهم، ويُعلي درجاتهم، وينفع ببذلهم وعطائهم.
والله من وراء القصد..

د. طارق السويدان





المقدمة

الحمد لله الذي نزّل على عبده الكتاب تبياناً لكل شيء، وجعله نوراً لمن استهدى به، وفصّل أحكامه تفصيلاً، وصلّى الله على من أرسله رحمة للعالمين هادياً وبشيراً، وجعل سنته مع الكتاب حافظَين من الضلال لمن تمسك بهما وسار على هديهما:

وبعد:

فلقد نزّل الله الكتاب على رسوله منجّماً، وبيّن فيه خطة الإسلام كاملة، وشرع الأحكام لعباده؛ بما يحفظ لهم دنياهم وآخرتهم، وآتى رسوله ﷺ السنّة المطهرة مبيِّنة لما أُجمل فيه من أحكام، ومخصصة لعمومه، أو معممة لخصوصه، ومبيِّنة المحكم فيه والناسخ والمنسوخ وغير ذلك، وكان الصحابة الكرام يسمعون كلام الله، ويَرَون تطبيق رسول الله ﷺ، تفرّق الصحابة في الأمصار، ومع كل واحد منهم ما شاهده وسمعه من رسول الله ﷺ، وازداد عدد المسلمين من العرب وغير العرب، وكَثُرت الأحداث والوقائع، ولا بد لكل حادثة من حكم، فما كان فيه نص في كتاب الله أو سنة رسول الله حكموا به، وما لم يكن فيه نص اجتهدوا آراءهم بما لا يخالف الكتاب والسنة، ثم جاء التابعون ونهجوا نهجهم، فلما جاء الأئمة، وجدوا حصيلة كبيرة من الأحكام مما جاء في كتاب الله أو سنة رسوله، أو مما اجتهد فيه الصحابة والتابعون من بعدهم، فنهج كل واحد منهم نهجاً في أحكامه وفقهه، فمنهم من كان جلُّ اعتماده على الحديث وقلّما يأخذ بالرأي كالإمام مالك، ومنهم أَكْثَرَ من الاجتهاد والرأي كالإمام أبي حنيفة، ثم جاء الإمام الشافعي فتلقى العلم على أئمة الحرم المكي، ثم رحل إلى المدينة، وأخذ عن عالمها الإمام مالك وسائر شيوخ المدينة، وذهب إلى العراق وتلقى فقه الرأي على تلميذ أبي حنيفة الأمام محمد بن الحسن وانتقل إلى مصر وأخذ عمن كان بها من العلماء، وبهذا جمع فقه وعلم أكثر أهل زمانه، ثم أخذ بعقله الواعي وبصيرته النافذة، وإخلاصه وحدة ذكائه، مع علمه الذي لا يُقارَن في العربية؛ يوازن بين الأدلة، ويضع قواعد الاستنباط، ويؤصل الأصول، فكان أول من وضع علم أصول الفقه في كتابه "الرسالة".

وهكذا خرج الشافعي بمذهبه الجديد، الذي جمع بين مذاهب أهل الحديث، ومذهب أهل الرأي، فكان مذهباً وسطاً بين المذهبين.

وقد حاولتُ في هذا الكتاب الإلمام بأكثر مراحل حياة الشافعي، الزاخرة بالعلم والعمل؛ لتتكوَّن عند القارئ صورة عن هذا الإمام الجليل من ولادته حتى وفاته؛ فبدأت بولادته ونشأته وأجداده، ثم رحلته إلى البادية وطلبه للعربية، وما تعلمه في البادية، ثم تحدثت عن شعره ولغته، وانتقلتُ بعد ذلك إلى رحلاته إلى المدينة، ثم إلى العراق، ثم إلى اليمن، وأخيراً مجيئه إلى مصر، ووفاته بها، وعرّجتُ على شيوخه وتلاميذه، وذكرت شيئاً عن آرائه، وبعض الفرق التي كانت في عصره، وعن فقهه ومذهبه، وذكرتُ شهادات أهل اللغة وكبار العلماء من مختلف المذاهب والنِحل فيه، وتحدثت بإيجاز عن صفاته الخَلقية والخُلقية.

وما أدّعي أنني وفّيت هذا الحبر الجليل حقه، فما أنا في هذه السيرة المختصرة إلا كمن يدل على إشراق الصباح بمصباح.

وكل من كتب ويكتب عن حياة هؤلاء الأئمة الأعلام؛ إنما يكتب ليبيّن للناس القدوة الصالحة ويدلهم على منابع الخير والهدى، فهؤلاء الأئمة ما هم إلا أقمارٌ ساطعة تستمد نورها من شمس النبوة، فتبدد الظلمات وتضيء الدروب.

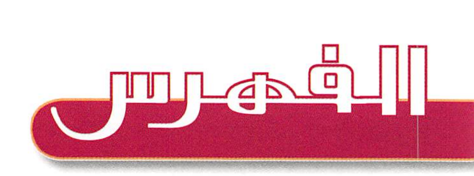
ولا يفوتني في هذا الكتاب أن أتوجه بالشكر القيم للفريق الرائع الذي عمل في هذا الكتاب وأخص بالذكر منهم شركة الإبداع الفكري والأخت منى دقاق على جهدها الكبير في صياغة الكتاب بأسلوبها الهادئ والمتقن، وكذلك الأخ الرسام الدكتور ياسر نصر على إبداعه المستمر والأخ المخرج المتميز رمزي فيصل على عمله وتفانيه وإبداعه فلهم جميعاً مني كل الشكر والمحبة ولتقدير..

وأخيراً أسأل الله عز وجل أن ينفعنا بهم وبعلومهم، وأن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبّله بمنه وكرمه إنه سميع قريب مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د.طارق محمد السويدان



الفهرس



الفهرس

الباب الأول

تعريف بالإمام الشافعي





الفصل الأول











5 النشأة الفقيرة



1 المولود الفلسطيني:

ولد الإمام الشافعي سنة 150هـ، وهي السنة التي توفي فيها الإمام أبو حنيفة شيخ فقهاء العراق وإمام القياس.

وأكثر الرواة على أن الشافعي ولد بغزة في فلسطين، كما روى الحاكم بطريقه عن محمد بن عبد الله بن الحكم يقول: سمعت الشافعي يقول: "ولدتُ بغزة، وحملتني أمي إلى عسقلان".

السنة التي توفي فيها الإمام أبو حنيفة ولد فيها الشافعي، وهي سنة 150هـ، في غزة بفلسطين.



2 نسبٌ رفيع:

هو: أبو عبد الله، محمد بن إدريس، بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، فهو يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف.

وعبد مناف الجد الكبير للنبي ﷺ له أربعة أولاد وهم: هاشم الذي من ذريته النبي ﷺ، والمطلب الذي من ذريته الإمام الشافعي، ونوفل جد جبير بن مطعم، وعبد شمس جد الأمويين.

محمد بن إدريس بن عبدالله الشافعي يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف جده الكبير.

وقد قيل في نسبه:

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحى ... نوراً ومن خلق المصباح عمودا

ما فيه إلا سيد من سيد ... حاز المكارم والتقى والجودا

3 أسرة عربية أصيلة:

المطلب بن عبد مناف

المطلب بن عبد مناف: هو عم عبد المطلب جد النبي ﷺ،وهو الذي رباه بعدما هلك أبوه، ويُقال: إنما قيل له عبد المطلب لأنه رباه، وكانوا في الجاهلية كل من ربّى يتيماً دُعي عبده.

واستمر عبد المطلب مع عمه إلى أن مات المطلب، وكان بنو المطلب نصراء بني هاشم في الجاهلية والإسلام، حتى إنه لما قاطعت قريش بني هاشم لتمسكهم بنصرة النبي ﷺ كان بنو المطلب مع الهاشميين، وعاشوا في الشعب، ورضوا بأن يجري عليهم ما يجري على الهاشميين على سواء، لذلك لما قسم النبي ﷺ خُمس ذوي القربى جعل لبني عبد المطلب مثل ما لبني هاشم على السواء، فطالب بنو أمية وبنو نوفل مثلهم، قال جبير بن مطعم: "لما قسم رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى من خيبر على بني هاشم وبني عبد المطلب، مشيت أنا وعثمان بن عفان، فقلتُ: يا رسول الله، هؤلاء إخوتك من بني هاشم لا ينكر فضلهم؛ لأن الله تعالى جعلك منهم، إلا أنك أعطيت بني المطلب وتركتنا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة، فقال ﷺ: "إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، وإنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، ثم شبك رسول الله ﷺ إحدى يديه في الأخرى".

بنو المطلب لم يفارقوا النبي ﷺ في جاهلية ولا إسلام، فكان يحبهم كحبه لبني هاشم.



هاشم بن المطلب وذريته

أما هاشم بن المطلب فهو والد عبد المطلب جد النبي ﷺ، ولشدة علاقة المطلب بأخيه هاشم ومحبته له سمّى ابنه باسمه.
وأما عبد يزيد بن هاشم: أبو ركانة، أولاده: ركانة، وعجير، وعمير، وعبيد.
وعبيد بن عبد يزيد: أمه الشفاء بنت الأرقم بن نضلة.
أما السائب بن عبيد: فقد كان مشركاً، وكان صاحب راية بني هاشم يوم بدر، فأُسر، وفدى نفسه، ثم أسلم، فقيل له: لِمَ لمْ تُسلم قبل أن تفدي نفسك؟ فقال: ما كنت أحرم المؤمنين مطمعاً لهم فيَّ.
وقال النبي ﷺ في حقه -حين أُتي به وبعمه العباس أسيرين-: "هذا أخي وأنا أخوه".
ويُقال: إن السائب كان يشبه النبي ﷺ في صورته.
واشتكى مرة، فقال عمر t: اذهبوا بنا نعود السائب بن عبيد، فإنه من مُصاصة قريش. (المُصاصة: خالص كل شيء).

السائب بن عُبيد من ذرية هاشم وقد أسلم بعد بدر، ويُقال: إنه كان يشبه النبي ﷺ في صورته.

شافع بن السائب وذريته

شافع بن السائب:

هو جد جد الشافعي ويُنسب إليه، وهو صحابي صغير، اتفق النَقَلة على أنه لقي النبي ﷺ وهو مترعرع، وله ذكر في حديث أخرجه الحاكم -في مناقبه- عن أنس قال: كان النبي ﷺ ذات يوم في فسطاط، إذ جاءه السائب بن عبيد، ومعه ابنه -يعني شافع بن السائب- فنظر النبي ﷺ إليه: فقال: "من سعادة المرء أن يشبه أباه"
ولشافع أخ اسمه عبد لله كان والي مكة كما أخرج الحاكم.
جد جد الشافعي هو شافع بن السائب وهو صحابي صغير، وإليه يُنسب الشافعي

أما عثمان بن شافع:

فهو أبو جد الشافعي، عاش إلى خلافة أبي العباس السفّاح الخليفة العباسي، وله ذكر في قصة بني المطلب، لما أراد السفّاح إخراجهم من الخُمُس، وإفراده لبني هاشم، فقام عثمان في ذلك حتى رده إلى ما مكان عليه في زمن النبي ﷺ.

العباس بن عثمان:

جد الشافعي، روى الحديث ورُوي عنه، ذكره الخزرجي في خلاصته، وذكر عنه أنه روى عن عمر بن محمد بن علي بن أبي طالب.



إدريس بن العباس

أما أبوه: فهو إدريس بن العباس، كان رجلاً من تَبَالة (بلدة مشهورة من أرض تهامة)، وكان بالمدينة، فظهر فيها بعض ما يكره، فخرج إلى عسقلان (مدينة من أعمال فلسطين)، فأقام فيها، ثم مات فيها، والشافعي لا يزال في المهد، وكان إدريس قليلَ ذاتِ اليد.

هذه هي أسرة الشافعي أسرة عربية أصيلة لها نسب رفيع جداً، وفيها اثنان من صحابة النبي ﷺ، فنسب الشافعي من بين الأئمة الأربعة هو أعلى الأنساب وأكرمها.

4 الأم الموجِّهة:

أما أم الشافعي فهي من الأزد وهي قبيلة عربية أصيلة، وليست قرشية، ولكن زعم بعض المتعصبين للشافعي أنها قرشية علوية، ولكن الصحيح أنها أزدية، وكل الروايات التي رويت عن الشافعي في نسبه تذكر على لسانه أن أمه من الأزد، وانعقد على ذلك الإجماع.

العابدة الحاذقة

وكانت أمه رحمها الله من العابدات القانتات، ومن أزكى الخلق فطرة، ومن طريف ما يُحكى عنها من الحذق والذكاء: أنها شهدت عند قاضي مكة هي وأخرى مع رجل، فأراد أن يفرّق بين المرأتين في الشهادة، فقالت له أم الشافعي: ليس لك ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾

(البقرة: من الآية282)

فرجع القاضي لها في ذلك.

وكان لهذه الأم الواعية فضل كبير في تكوين الإمام الشافعي وتنشئته.

أم الإمام الشافعي رحمها الله تعالى

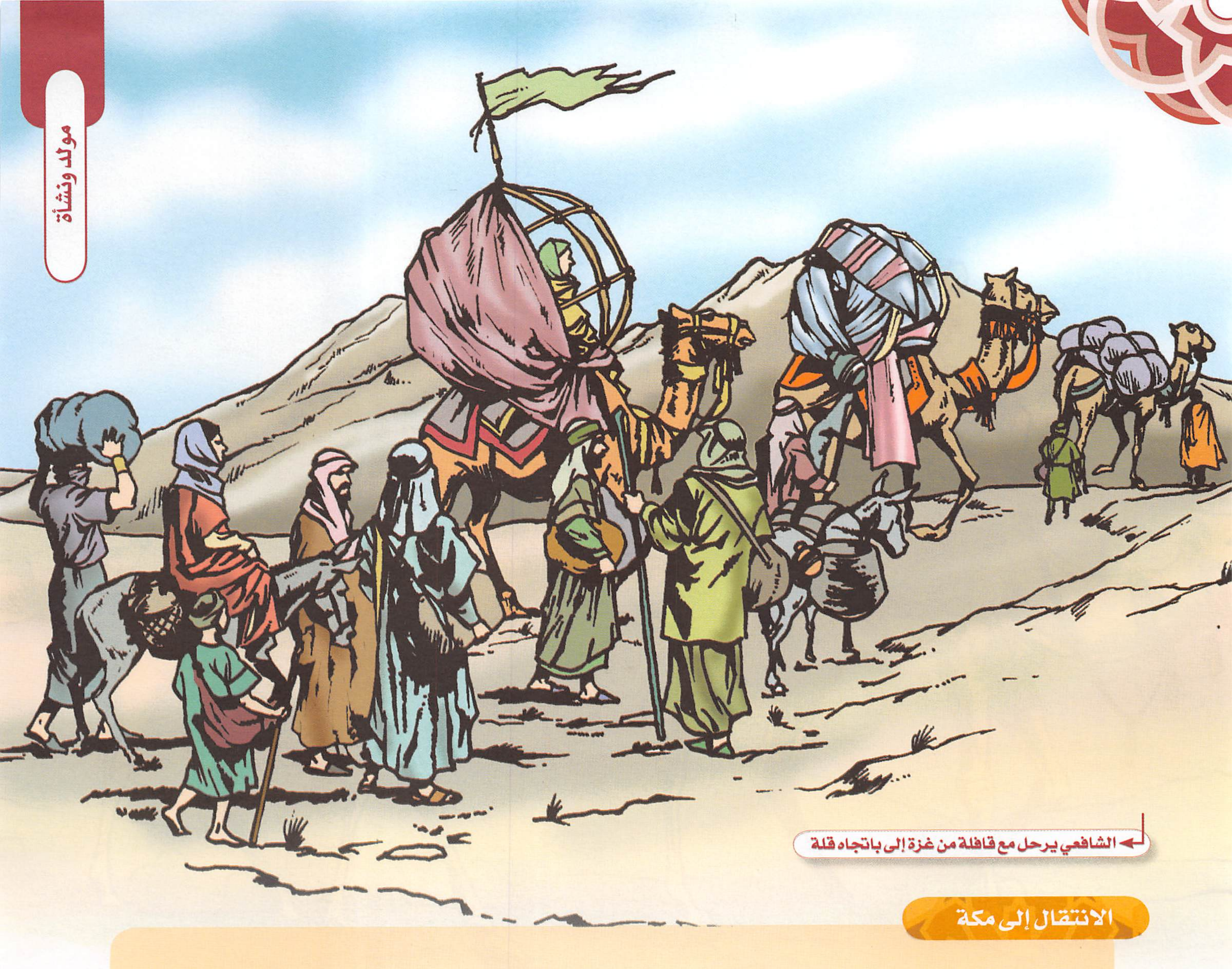
الأم الواعية هي التي تربي أبناءها على الخير والفضيلة، وكذلك كانت أم الشافعي، فكان لها الفضل الكبير في تكوينه وتنشئته، وهي من الأزد القبيلة العربية الأصيلة.

5 النشأة الفقيرة:

ولد الشافعي من أبٍ قرشي نسيب، لكن أباه مات والشافعي في المهد كما ذكرنا، فعاش في نشأته الأولى عيشة اليتامى الفقراء، مع نسب رفيع شريف، هو أشرف الأنساب، والنشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل الناشئ ينشأ على خلق قويم، ومسلك كريم، ذلك بأن علو النسب وشرفه يجعل الناشئ منذ نعومة أظفاره يتجه إلى معالي الأمور ويتجافى عن سفاسفها، بالإضافة إلى أن ذات التنشئة كانت تتجه به إلى السمو والرفعة، وإن الفقر مع هذا العلو النَّسَبي يجعله قريباً من الناس، يحس بإحساسهم، ويندمج في أوساطهم، ويتعرف دخائل المجتمع، ويستشعر مشاعره.



الإمام الشافعي رضي الله عنه



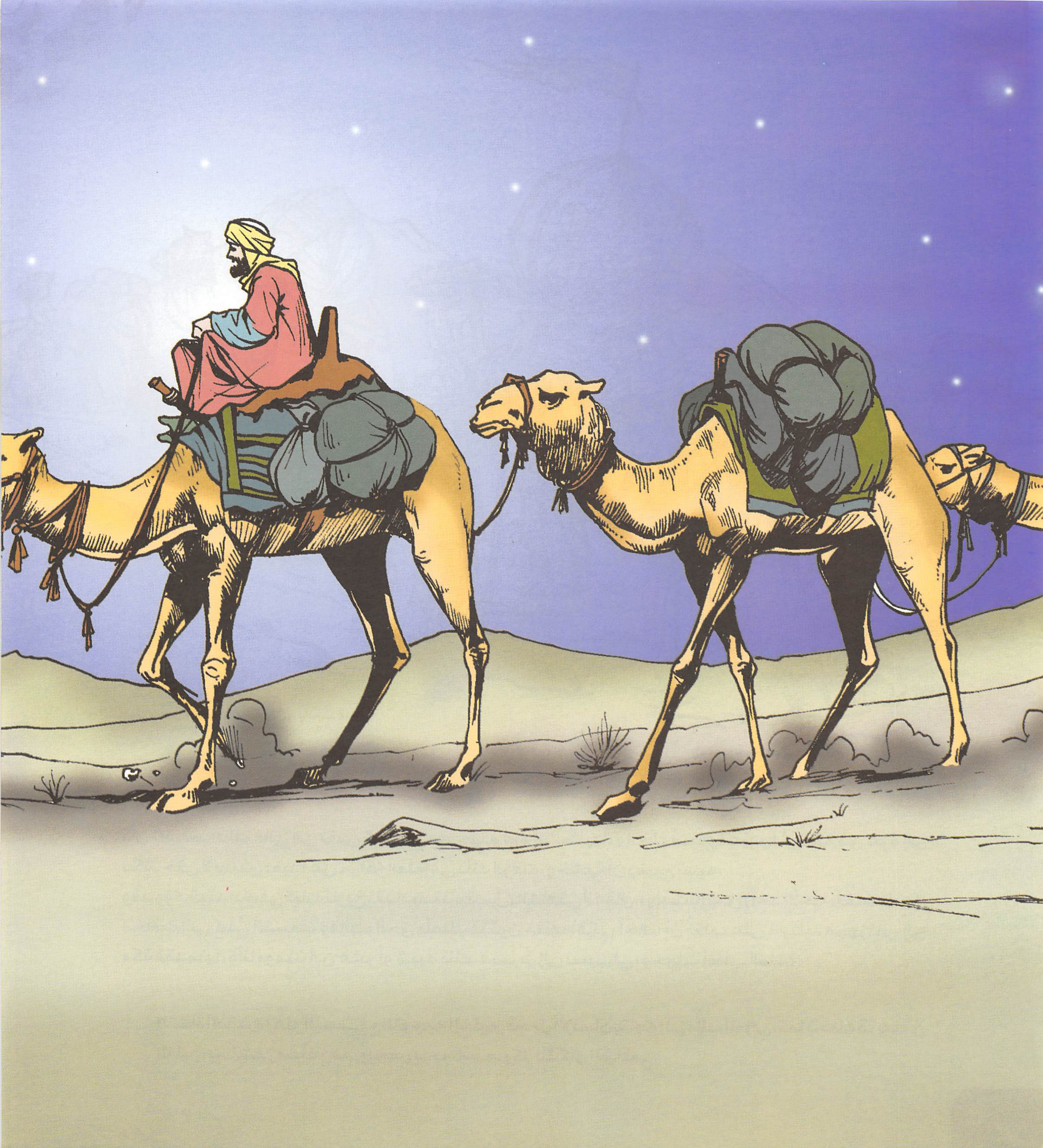
الشافعي يرحل مع قافلة من غزة إلى باتجاه قلة

الانتقال إلى مكة

كان الاستعداد للمعالي في نفس الشافعي، ووجهته أمه إلى طلبها، واتخاذ أسبابها عندما أرسلته من غزة إلى مكة، حتى لا يعيش بعيداً عن مراكز العلم في ذلك الوقت، وخشية أن يضيع نسبه.

وقد روى البغدادي في كتابه تاريخ بغداد بسند متصل بالشافعي أنه قال: «وُلِدْتُ باليمن (أحد الأحياء بفلسطين)، فخافت أمي عليَّ الضيعة، وقالت: الحق بأهلك فتكون مثلهم فإني أخاف أن تُغلَب على نسبك، فجهزتني إلى مكة فقدمتُها، وأنا يومئذ ابن عشر أو شبيه ذلك، فصرتُ إلى نسيب لي، وجعلتُ أطلب العلم».

النشأة الفقيرة وعلو النسب، مع التوجيه السليم، تجعل الإنسان يتجه إلى طلب المعالي، كما تجعله قريباً من الناس، يستشعر مشاعرهم، ويحس بإحساسهم، وكذلك كان الشافعي.



الفصل الثاني

طريق العلم









1 بداية التعلم

بدأ الشافعي يفتح بصره وبصيرته، في الوطن القديم لأجداده -مكة- مهوى أفئدة المسلمين في أنحاء الأرض، ومهبط الوحي، ومنبت الإسلام، وبدأ يتفاعل مع هذه البيئة، ليأخذ مكانه الطبيعي بين العلماء والأشراف، وهل لمثله غير طريق العلم؟

أرادت أمه العاقلة أن تأخذ به إلى معلِّم، يعلمه القراءة والكتابة على عادة الناس في البداءة بالتعلم، ولكن لم يكن مع أمه ما تؤديه للمعلم أجراً عن تعليم ابنها، يقول الشافعي في ذلك: "كنت يتيماً في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم".

حرصت أمه على تعليمه رغم فقرها، وهكذا فلتكن الأمهات.

الشافعي يبدأ بتلقي العلم عن العلماء في سن صغيرة



2 الطفل النابغة:

وفي أحد الأيام تأخر المعلم، فقام هذا الولد الصغير يعلم الأولاد الآخرين، فعرف المعلم أنه ليس ولداً عادياً، فاهتم به، فألغى عنه رسوم التعليم مقابل أن يعلم الأطفال مكانه إذا تأخر.

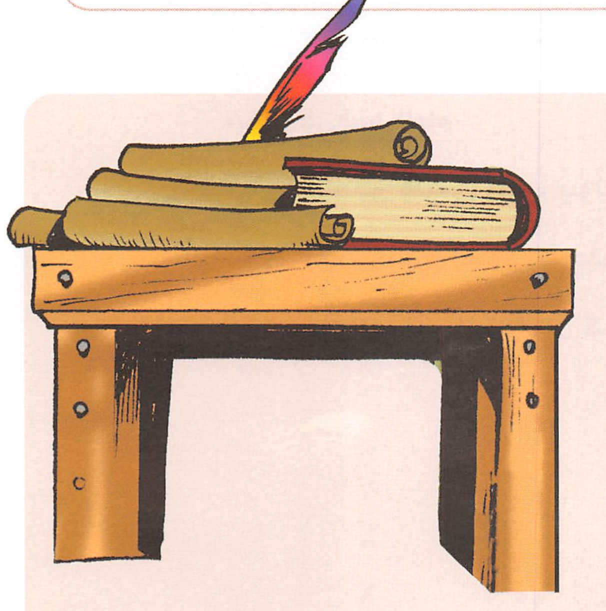
ويؤكد ذلك قول الشافعي: "كنت أقرأ في الكتاب وأسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها، فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم، كنت قد حفظت جميع ما أملى، فقال لي المعلم ذات يوم: لا يحل أن آخذ منك شيئاً".

واستمر على ذلك حتى حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين.

في مكة المكرمة مهبط الوحي، بدأ الشافعي يتلقى العلم وهو ما يزال في بداية طفولته، حتى حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين.



3 شاب بلا مراهقة:



دخل المسجد بعد ذلك، يختلف إلى العلماء، ويسمع منهم بشغف شديد، وذهن حاد، واتجه بعد حفظ القرآن الكريم إلى استحفاظ أحاديث رسول الله ﷺ، وكان حريصاً عليها، ويستمع إلى المحدثين، فيحفظ الحديث بالسمع، ثم يكتبه على الخزف أحياناً، وعلى الجلود الأخرى، وكان يذهب إلى ديوان الحكم يستوهب الظهور (أي الأوراق الديوانية التي كتب على أحد جوانبها) ليكتب على الوجه الذي لم يُكتب عليه.

وفي هذه المرحلة حفظ الموطأ للإمام مالك قبل أن يسافر إليه ويلتقي به، فقد روى المزني عن الشافعي قوله: "حفظتُ القرآن وأنا ابن سبع، وحفظتُ الموطأ وأنا ابن عشر".

ولم ينشغل في نشأته بما ينشغل به المراهقون من فوضى وانفلات وتسيب، بل انصرف للعلم وجعله له هدفاً..

بعد حفظ القرآن اتجه الشافعي إلى طلب الحديث، فكان يسمع ويحفظ، ويكتب على ما يتيسر له من جلود أو خزف أو غيرها، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين.



وقد نظم في هذا المعنى:

العلم صيد والكتابة قيده ... قيِّد صيودَك بالحبال الواثقة
فمن الحماقة أن تصيد غزالة ... وتتركها بين الخلائق طالقة

ويبين الإمام الشافعي أن قيمة الإنسان بعلمه وليست بثيابه، فيقول في ذلك:

عليَّ ثيابٌ لو تباع جميعها ... بفَلْسٍ لكان الفَلْسُ منهنَّ أكثرا
فيهنَّ نفسٌ لو تُقَاسُ ببعضها ... نفوسُ الوَرَى كانَتْ أجَلَّ وأكبرا
ما ضرَّ نَصْلَ السَّيْفِ إخلاقُ غِمْدِهِ ... إذا كان عضْباً حيث وجهتَهُ فَرَى

ويقول في فضل العلم:

تَعلَّمْ فليسَ المرءُ يُولَدُ عالماً ... وليسَ أخو علمٍ كمنْ هوَ جاهلُ
وإنَّ كبيرَ القومِ لا علمَ عندَهُ ... صغيرٌ إذا التفَّتْ عليهِ الجَحافِلُ
وإنَّ صغيرَ القومِ إنْ كان عالماً ... كبيرٌ إذا رُدَّتْ إليهِ المحافِلُ

الفصل الثالث

الرحالة الصغير





الشافعي في البادية بين أفراد قبيلة هذيل ليتعلم منهم الفصاحة

1 في البادية:

ولما اشتد في طلب العلم مع أنه لا يزال في صباه اتجه إلى التفصح في العربية ليبتعد عن العجمة (الخطأ في اللغة العربية) وعدواها التي أخذت تغزو اللسان العربي بسبب الاختلاط بالأعاجم في المدائن والأمصار، فاللغة هي مفتاح العلوم كلها.

وأفضل طريقة لتعلمها هي الطريقة التي تعلّم بها المصطفى ﷺ البلاغة، فالنبي ﷺ تربّى في بني سعد وكانوا من أفصح الناس.

والشافعي كذلك خرج إلى البادية، ولزم هذيلاً، وكانت هذيلٌ معروفة بالفصاحة، وبالذات البيان والشعر، وهي من أفصح العرب وأفضلها شعراً، ولهم دواوين في الشعر، وشعرهم كله رقة، فجلس الشافعي يتعلم اللغة،ويتلقى أخبار العرب، ويتعلم الأنساب، ويتعلم الشعر في هذيل سبعة عشر عاماً، وقيل: عشر سنين.



استحفظ الأشعار والأخبار

يقول الشافعي في هذا:

"إني خرجتُ من مكة فلازمت هذيلاً بالبادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها، وكانت أفصح العرب، أرحل برحيلهم، وأنزل بنزولهم، فلما رجعتُ إلى مكة، جعلتُ أنشد الأشعار، وأذكر الأنساب والأخبار".

وهكذا استحفظ أخبار البادية، وحفظ أشعارها، واختص شعر هذيل بالعناية، وبلغ الشأو في ذلك، حتى أن الأصمعي راوي التراث الفني للأدب الجاهلي وصدر الإسلام قال: "صححتُ أشعار هذيل على فتى من قريش اسمه محمد بن إدريس".

اللغة العربية هي مفتاح العلوم، وفهمها يعين على فهم ما سواها؛ لذلك اتجه الشافعي إلى البادية، ولزم هُذيلاً، وهي أفصح العرب، فحفظ أشعارها، وحفظ أخبار البادية وتلقى آدابها.

2 التدرُّب العسكري:

وفي البادية لم يكتف الشافعي بتعلم الأخبار والآداب وحفظ الأشعار، بل جعل يتخير من عادات أهل البادية ما يراه حسناً، فتعلم الرماية وأغرم بها، ونبغ فيها، حتى صار إذا رمى من السهام عشراً أصابت كلها، وقد روي عنه أنه قال لبعض تلاميذه: كانت همتي في شيئين: في الرمي والعلم، فصرتُ في الرمي بحيث أصيب عشرة من عشرة، ثم سكت عن العلم، فقال بعض الحاضرين: والله أنت في العلم أكثر منك في الرمي".

الشافعي يتعلم الرماية، ثم يصبح ماهرا بها



شربتُ زمزم لثلاث

ويقول: "شربتُ زمزم لثلاث: الرمي، فإني أرمي العشرة من العشرة، والتسعة من العشرة، وشربت زمزم للعلم، وها أنا كما ترون، وشربتُ زمزم للجنة".

وكان يقول: "كنتُ ألزم الرمي، حتى كان الطبيب يقول لي: أخاف أن يصيبك السل من كثرة وقوفك في الحر".

فارسٌ لا يُبارى

ومما تعلمه الشافعي في البادية كذلك ومارسه: ركوب الخيل، فكان فارساً لا يُبارى، قال الربيع: كان الشافعي أشجع الناس وأفرسهم، وكان يأخذ بأذنه وأذن الفرس والفرس يعدو (دلالة على إتقانه للفروسية).

هذه هي تربية الشافعي الأولى، وهي أمثل تربية عربية في ذلك الوقت؛ حفظاً للقرآن، وطلباً للحديث، وتوضحاً بالفصحى، وتربيةً على الفروسية، وتعرفاً لأحوال الحواضر والبوادي.

النفس التواقة إلى العلا، لا ترضى بالدون، ولا تقنع بالقليل، فالشافعي لم يكتفِ بكل ما تعلمه، بل تعلم إلى جانبه الرمي حتى نبغ فيه، والفروسية فكان فارساً لا يُبارى.

الإمام الشافعي فارس لا يبارى في الفروسية وركوب الخيل

3 ويعود شاعراً:

بعد هذا العلم العظيم في اللغة رجع إلى مكة، وما زال يحفظ القرآن الكريم، ويحفظ الموطأ، لكنه ليس من العلماء، وإنما هو من الشعراء والأدباء، وكان للشعراء والأدباء مكانتهم العظيمة، فكان له مجالس ينشد فيها الأشعار، ويذكر قصص العرب وأخبارهم، وألوان الأدب، والناس تحب هذه المجالس، فبدأ الناس يتجمعون حوله.

عاد الشافعي إلى مكة شاعراً أديباً، فتجمع الناس حوله، ولم يظهر علمه الشرعي بعد.



الإمام الشافعي في أسواق مكة يناظر الناس بالشعر والأدب





4 إلى المدينة:

ولرحلته إلى المدينة قصة طريفة معروفة، وقد قصّها الشافعي نفسه فقال فيها:

"ثم إني خرجت من مكة، فلزمتُ هذيلاً في البادية، أتعلم كلامها، وآخذ طبعها، وكانت أفصح العرب، فقال: فبقيت فيهم سبع عشرة سنة، أرحل برحيلهم، وأنزل بنزولهم، فلما رجعتُ إلى مكة جعلتُ أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار، وأيام العرب، فمرّ بي رجل من الزبيريين من بني عمي، فقال لي: يا أبا عبد الله، عزّ عليّ أن لا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه، فتكون قد سدتَ أهل زمانك.

فقلت: فمن بقي نقصده؟

فقال لي: مالك بن أنس سيد المسلمين.

قال الشافعي: فوقع في قلبي، فعمدتُ إلى الموطأ فاستعرته من رجل بمكة، فحفظته في تسع ليالٍ ظاهراً، ثم دخلتُ إلى والي مكة، وأخذتُ خطاباً منه إلى والي المدينة، وكتاباً آخر إلى مالك بن أنس.

وقدمت المدينة، وأوصلتُ الكتاب إلى الوالي، فلما قرأه قال والي المدينة: إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلستُ أرى الذل حتى أقف ببابه. (أي أن الوالي لا وزن له عند إمام المسلمين مالك بن أنس).

فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضره. (أي يطلب من الإمام مالك أن يحضر إليه).

فقال والي المدينة: هيهات، ليت أني إذا ركبتُ أنا ومن معي، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا. (أي قد يلين الإمام مالك عندما يراني أنا وأعيان البلد جئناه مشياً على الأقدام).

قال الشافعي: فواعدته العصر (أي أخذنا منه موعداً بعد صلاة العصر)، وركبنا جميعاً، فوالله لكان كما قال، لقد أصابنا من تراب العقيق، فتقدم رجل فقرع البابِ فخرجت إلينا جارية سوداء.

فقال لها الأمير: قولي لمولاكِ إني بالباب، فدخلت فأبطأت، ثم خرجت.

فقالت: إن مولاي يقرئك السلام، ويقول: إن كانت مسألة فارفعها في رقعة (أي اكتبها) يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث (أي لتعلم حديث الرسول ﷺ) فقد عرفتَ يوم المجلس (أي موعد الدرس الأسبوعي) فانصرف.

فقال الأمير لها: قولي له: إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة.

فدخلت وخرجت في يدها كرسي فوضعته، ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار، وهو شيخ طويل مسنون اللحية، فجلس.

فرفع إليه الوالي الكتاب، فقرأه، فبلغ إلى قوله: وإن هذا رجل من أمره وحاله.. فتحدثه، وتفعل وتصنع. (أي في الرسالة توصية من والي مكة للإمام مالك بأن يهتم بالشافعي ويدرسه).

فرمى الكتاب من يده، ثم قال: سبحان الله! أوَ صار علم رسول الله ﷺ يؤخذ بالوسائل؟! (أي هل صار العلم بالواسطة والشفاعة؟)



قال الشافعي: فرأيتُ الوالي قد تهيبه أن يكلمه، فتقدمتُ إليه وقلتُ له: أصلحك الله ، إني رجلٌ مطلبي (أي من بني المطلب)، من حالي وقصتي.. (أي شرحت له وضعي وهدفي في طلب العلم).

فلما سمع الإمام مالك كلامي نظر إلي، وكان لمالك فراسة، فقال: ما اسمك؟

فقلتُ: محمد.

فقال: يا محمد، اتقِ الله واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن، إن الله قد ألقى في قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية، إذا كان الغد تجيء ويجيء من يقرأ لك.

قال الشافعي: فغدوت عليه (أي جئته صباحاً)، وابتدأت أقرؤه ظاهراً، والكتاب في يدي، فكلما تهيبتُ مالكاً وأردتُ أن أقطع، أعجبه حسن قراءتي وإعرابي.

فيقول الإمام مالك للشافعي: زد يا فتى. حتى قرأت عليه كتاب الموطأ في أيام يسيرة، ثم أقمتُ بالمدينة حتى توفي مالك بن أنس رحمه الله تعالى".

انصرف الشافعي إلى طلب الفقه، وقصد إلى مالك بن أنس بتوجيه أحد بني عمه، فرحل إلى المدينة المنورة، وبقي فيها حتى وفاة مالك يتلقى العلم على يديه، وقرأ عليه كتاب الموطأ مباشرة..

الشافعي يقرأ على الإمام مالك كتابه العظيم «الموطأ»



5 تلميذ الإمام مالك

لزم الشافعي شيخ فقهاء ال بل أعظم علماء المسلمين في زمانه مالكاً، وعاش في كنفه، يتفقه عليه ويدارسه المسائل التي يفتي فيها الإمام الجليل، وقد بلغ الشافعي شرخ الشباب، ومع ملازمته لمالك كان يتحين الأوقات، فيقوم برحلات في البلاد الإسلامية، يستفيد فيها ما يستفيده المسافر الأريب من علم بأحوال الناس وأخبارهم، وشؤون اجتماعهم، وكان يذهب إلى مكة يزور أمه، وينتصح بنصائحها، وكان فيها نبل وخلق، وحسن فهم وتقدير للأمور، فلم تكن ملازمته لمالك مانعة من سفره واختباراته الشخصية.

وكان الشافعي سريع البديهة، سريع الحفظ، فأخذ من الإمام مالك علماً كثيراً، كما أخذ من غيره كذلك.

والذي جعلهُ يتمكن من هذا العلم ما لم يتمكن منه كل أقرانه وكل من حوله؛ أمران عظيمان: ذكاء وفطنة وحفظ غير عادي من ناحية، وتمكُّن في الفصاحة واللغة من ناحية أخرى.

ذكاء الشافعي وفطنته، مع لغته وفصاحته، جعلته يسبق كل أقرانه، في التعلُّم والفقه، فأخذ من الإمام مالك علماً كثيراً، وأدباً جماً، كما كان يلتقي بغيره من العلماء ويتلقى منهم..

فوائد السفر

ويحثُّ الشافعي على السفر وطلب العلم فيقول:

ما في المُقام لذي عقلٍ وذي أدب ... مِنْ راحةٍ فدعِ الأوطانَ واغتربِ

سَافِرْ تجدْ عوضاً عمَّنْ تُفارقُهُ ... وانصَبْ فإنَ لذيذَ العيشِ في النَّصَبِ

إني رأيتُ وُقوفَ الماءِ يُفسدُهُ ... إنْ ساحَ طابَ وإنْ لم يجرِ لم يَطِبِ

والأُسْدُ لولا فراقُ الأرضِ ما افترسَت ... والسَّهْمُ لولا فِراقُ القوسِ لم يُصِبِ

والشمسُ لو وقفَتْ في الفُلك دائمةً ... لملَّها الناسُ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ

والتبْرُ كالتُّرْبِ مُلقىً في أماكنه ... والعودُ في أرضه نوعٌ من الحَطَبِ

فإنْ تغرَّبَ هذا عزَّ مطلَبُهُ ... وإنْ تغرَّبَ ذاكَ عزَّ كالذهبِ

الفصل الرابع



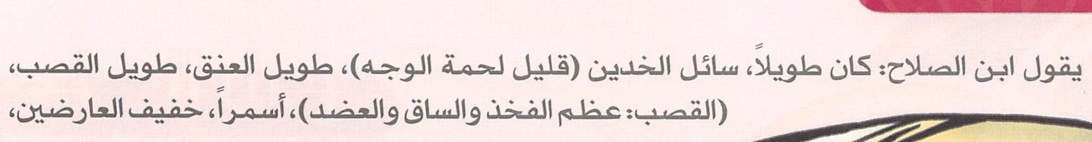


2 صوته المؤثر

3 لباس الشافعي

4 أسرة الشافعي

1 وصف صورته:



يقول ابن الصلاح: كان طويلاً، سائل الخدين (قليل لحمة الوجه)، طويل العنق، طويل القصب، (القصب: عظم الفخذ والساق والعضد)، أسمراً، خفيف العارضين، يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية، حسن الصوت والسمت، عظيم العقل، جميل الوجه، مهيباً، فصيحاً، من آدب الناس لساناً.

قال: وكان مسقاماً، ونقل عنه أنه كان وارد الأرنبة (طويلها)، وكان على أنفه أثر جدري، بادي العنفقة (الشعيرات بين الشفة السفلى والذقن)، أبلج (بيِّن، مشرق، وضيء)، مفلج (منفرج) الأسنان.

وقد أخرج البيهقي عن يونس بن عبد الأعلى قال: كان الشافعي معتدل القامة، واضح الجبهة، رقيق البشرة، لونه إلى السمرة، وفي عارضه خفة.

وفي الوافي للصفدي: كان الشافعي رحمه الله نحيفاً، خفيف العارضين (صفحة الخَدّ)، يخضب بالحناء.

وقال المزني: ما رأيت أحسن وجهاً من الشافعي، إذا قبض على لحيته لا تفضل عن قبضته (لا تزيد عن قبضة يده).

صورة الإمام الشافعي كما وصفه أصحاب السير والتراجم



الشافعي من أحسن الناس وجهاً، عظيم العقل، حسن الصوت والسَّمت، مهيباً، فصيحاً.



2 صوت مؤثّر:

عُرف الشافعي بجمال جرسه في الكلام، وشجو صوته في القراءة، فكان إذا تلا القرآن الكريم يتجمع الناس حوله من جمال صوته، وحسن تلاوته، وكان شديد التأثر عند تلاوة القرآن، ويتأثر الناس بهذه القراءة الحانية الجميلة، فتأخذهم العبرات، ويعلو النشيج.

قال بحر بن صخر: كنا إذا أردنا أن نبكي قال بعضنا لبعض: قوموا إلى هذا الفتى المطلبي يقرأ القرآن، فإذا أتيناه استفتح القرآن، حتى يتساقط الناس، ويكثر عجيجهم بالبكاء من حسن صوته، فإذا رأى ذلك أمسك عن القراءة.

وقال أحمد بن صالح: كان الشافعي إذا تكلم كأن صوته صَنْج أو جَرَس، من حُسن صوته.

أوتي الشافعي مع جميل صفاته الخَلقية والخُلقية صوتاً ندياً مؤثراً، فكان الناس من شدة تأثرهم بتلاوته القرآن يتساقطون من كثرة البكاء.



هيئة الشافعي ولباسه كما ذكره أصحاب السير والتراجم

3 لباس الشافعي:

قيل للربيع بن سليمان: كيف كان لباس الشافعي؟ قال: كان لباسه مقتصداً، ليس يلبس الثياب الرفيعة الغالية، فكان يلبس الكتان والقطن البغدادي، وربما لبس قَلَنْسُوة (طاقية لتغطية الرأس)، ليست بمشرفة جداً (أي ليست غالية)، وكان يلبس كثيراً العمامة والخُف.

وفي الانتقاء: كان رحمه الله يعتم بعمامة كبيرة كأنه أعرابي.

أما خاتمه: فقد قال الربيع: ويتختم (أي الشافعي) في يساره، ونقش خاتمه: كفى بالله ثقة لمحمد بن إدريس.

ورواية ابن أبي حاتم الرازي: "الله ثقة محمد بن إدريس".

كان الشافعي مقتصداً في لباسه، يلبس الكتان والقطن البغدادي، ويلبس الطاقية أو العمامة الكبيرة، ويضع في يده اليسرى خاتماً نقشه: كفى بالله ثقة لمحمد بن إدريس".



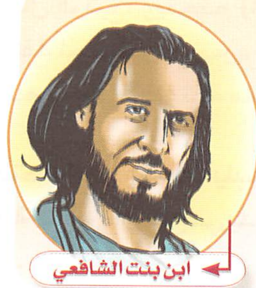


4 أسرة الشافعي:

زوجته

قال أحمد بن محمد بن ابنة الشافعي: كانت امرأة الشافعي أم ولده: حَمْدة بنت نافع بن عنْبَسَة ابن عمرو بن عثمان.

ابنه الثاني محمد



الجارية دنانير

وللشافعي ابن آخر، اسمه محمد أيضاً، وكنيته أبو الحسن، وهو من سَريّته المسماة "دنانير"، توفي وهو طفل.

قال محمد بن عبد الله بن الحكم: سمعت الشافعي يقول: الناس يقولون: ماء العراق، وما في الدنيا ماء مثل ماء مصر للرجال، لقد قدمت مصر وأنا مثل

ابنه الأكبر محمد

أبو عثمان محمد بن محمد بن إدريس، وهو الأكبر من ولده، كان طالباً للعلم وقد سمع من أبيه، ومن سفيان بن عيينة، وعبد الرزاق، وأحمد بن حنبل، وولي القضاء بالجزيرة وأعمالها، وحدّث هناك، كما ولي القضاء في مدينة حلب بالشام، وبقي فيها سنين كثيرة.

قال له أحمد بن حنبل: إني أحبك لثلاث خلال: أنك ابن أبي عبد الله، وأنك رجل من قريش، وأنك من أهل السنة.

ولما توفي والده الشافعي كان بالغاً، مقيماً بمكة.

أعقب أبو عثمان ثلاثة بنين: منهم العباس بن محمد بن محمد بن إدريس، وأبو الحسن مات رضيعاً، وفاطمة.

بناته فاطمة وزينب



ابن بنت الشافعي

وللشافعي من امرأته العثمانية ابنتان: فاطمة وزينب.

وزينب هذه أنجبت ولداً اسمه أحمد بن محمد بن عبد الله، عُرف بابن بنت الشافعي، قال النووي: كان إماماً مبرزاً، لم يكن في آل الشافعي مثله، سرت إليه بركة جده.



زوجة الشافعي حمدة بنت نافع، وله منها: ابنه أبو عثمان محمد، وفاطمة وزينب، وله ولد من سريته "دنانير" اسمه محمد أبو الحسن توفي وهو طفل.

الباب الثاني

التميز والمواهب





الفصل الثاني

المواهب الخاصة



1. الفراسة والبديهة
2. علم الفلك
3. الطبيب الحاذق
4. علم الأنساب
5. الذاكرة والتفكير

1 الفراسة والبديهة:



الفراسة هي القدرة على تحليل الشخصيات من خلال النظر في الوجوه والعلامات الظاهرة، وقد عُني الشافعي بالفراسة علماً وتجربة، ومارسها ممارسة فعلية، وأخذها حين لازم الأعراب في البادية وهو صغير، ثم أخذ كتبها من اليمن.

أطرف قصص الفراسة

وله في الفراسة قصص تُروى في جميع مراحل حياته، ومن أطرفها ما يرويه الحميدي، قال: قال محمد بن إدريس:

خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها، ثم لما كان انصرافي مررت في طريقي برجل وهو محتبٍ (جالس) في داره، أزرق العين، ناتئ (مرتفع) الجبهة، سِناطٌ (لا لحية له أصلاً).

فقلت له: هل من منزل؟

قال: نعم.

الشافعي يمر بدار أثناء رحلته إلى اليمن

قال الشافعي: فرأيت في وجهه الدناءة (وهذا النعت أخبث ما يكون في الفراسة) فأنزلني فرأيتُ أكرم رجل؛ بعث إليّ بعشاء وطِيْبٍ وعلَف لدابتي، وفراش ولحاف، وجعلت أتقلب الليل أجمع، ما أصنع بهذه الكتب؟ (أي ما قيمة كتب الفراسة التي تعلمتها في اليمن وقد أخطأت فراستي في هذا الرجل؟).

فلما أصبحتُ قلتُ للغلام: أَسْرِج (شدّ سرج الدابة). فأَسْرَج، فركبتُ ومررتُ على الرجل، وقلتُ له: إذا قدمتَ مكة، ومررتَ بذي طوى، فَسَلْ عن منزل محمد بن إدريس الشافعي.

فقال لي الرجل: أَمَوْلى (أعبدٌ) لأبيكَ أنا؟

قلتُ: وما هو؟ (ماذا تقصد؟).

قال: اشتريتُ لكَ طعاماً بدرهمين، وأَدَماً بكذا، وعطراً بثلاثة دراهم، وعَلفاً لدابتك بدرهمين، وكراء (أجرة) الفِراش واللحاف درهمين.

قال الشافعي: قلت: يا غلام، أعطه، فهل بقي من شيء؟

قال: كراء المنزل، فإني وسعت عليك وضيّقتُ على نفسي.

فغبطتُ نفسي بتلك الكتب. (أي صرت سعيداً أن هذه الكتب التي فيها علم الفراسة لم تخطئ).

فقلتُ له بعد ذلك: هل بقي من شيء؟

قال: امضِ أخزاك الله تعالى، فما رأيتُ قط شرّاً منك.

أخذ الشافعي الفراسة علماً، ومارسها فعلاً، فكان من أدق الناس فراسة.



صاحب الدار وقد كان دنيئاً وصدقت فراسة الشافعي فيه

حادثة مدهشة

وللشافعي حوادث مدهشة في الفراسة، منها ما رواه المزني قال: كنتُ مع الشافعي رحمه الله في المسجد الحرام، إذ دخل رجل يدور بين النوّام.

فقال الشافعي للربيع: قم فقل له: ذهب عنك عبدٌ أسود مصاب بإحدى عينيه؟

قال الربيع: فقمتُ إليه فقلتُ له ما قال الشافعي، فقال الرجل: هذا عبدي.

فقلتُ له: تعال إلى الشافعي، فتقدم إلى الشافعي.

فقال: هذا عبدي.

فقال له الشافعي: مرّ فإنه في الحبَش، فمرّ الرجل فوجده في الحبش.

فقال المزني: فقلنا له: أخبرنا فقد حيّرتَنا.

قال الشافعي: نعم، رأيتُ رجلاً دخل من باب المسجد يدور بين النوّام، فقلتُ: هارباً يطلبه، ورأيته يجيء إلى النوّام السودان، فقلت: عبد أسود، ورأيته يجيء إلى ما يلي العين اليسرى، فقلت: مصاب بإحدى عينيه.

فقلنا: فالحبش: كيف علمته؟

قال الشافعي: تأولتُ حديث رسول الله ﷺ: "لا خير في الحبش: إذا جاعوا سرقوا، وإذا شبعوا شربوا وزنوا".

فتأولتُ أنه فعل إحداها، فكان كذلك.



الشافعي يستخدم فراسته وذكاءه الخارق في إخبار أحد الرجال بمكان عبده

فراسته في تلاميذه

ومن فراسة الشافعي رحمه الله ما روي عن الربيع بن سليمان قال: دخلنا على الشافعي عند وفاته أنا والبويطي والمزني ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، قال: فنظر إلينا الشافعي ساعة، فأطال، ثم التفت إلينا، فقال: أما أنت يا أبا يعقوب فتموت في حديدك، وأما أنت يا مزني فستكون لك بمصر هَنَاتٌ وهَنَات، ولتدركن زماناً تكون أقيس أهل ذلك الزمان.
وأما أنت يا ربيع فأنت أنفعهم لي في نشر الكتب، قم يا أبا يعقوب فتسلم الحلقة، قال الربيع: فكان كما قال.
عندما يخلص الإنسان لله، ينوّر بصره وبصيرته، ويفتح له من المعارف ما يدهش العقول، وإخلاص الشافعي في علمه وعمله جعله ينال من علوم أهل زمانه أكثرها، فإلى جانب كل ما تقدّم؛ كان عنده فراسة قوية، قلّما يخطئ فيها، "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله".

بصيرة نافذة

إضافةً إلى كل ما تقدّم، كان الشافعي نافذ البصيرة، قوي الفراسة، كشيخه مالك، وهذه الصفة يجب أن تكون في المُناظِر ليجذب خصمه إليه، كما يجب أن تكون في الأستاذ، ليعلم أحوال تلاميذه فيلقي عليهم من العلم القدر الذي يطيقونه؛ فيوائم بين طاقتهم في الفهم، وطاقته في التبيين، واجتماع هذه الصفة في الإمام الشافعي مع ما سبق من صفاته وقوة بيانه، كانت سبباً في أن التفّ حوله أكبر عدد من التلاميذ والأصحاب.

الأستاذ الحاذق هو من يعلم بقوة فراسته، ونفاذ بصيرته، أحوال تلاميذه، فيلقي عليهم ما يطيقون فهمه، وهذا ما جعل للشافعي عدداً كبيراً من التلاميذ والأصحاب.

سريع البديهة

وكان مع الذاكرة الحافظة الواعية، حاضر البديهة، تنثال عليه المعاني انثيالاً في وقت الحاجة إليها، فلم تكن به حبسة فكرية، ولم يكن ممن تُغلق عليه الأمور، بل كان يلقي على ما يدرس ضوءاً من تفكيره، فتتضح بين يديه الحقائق، ويستقيم أمامه منطقها، فيسلك بها مسالكها.

البديهة الحاضرة جعلت الشافعي يسوق المعاني كأنها تنثال عليه، دون أن يُغلق عليه أمر، أو يعجزه معنى، فاتضحت الحقائق بين يديه واضحة جلية.





2 علم الفلك

عن الربيع بن سليمان قال: قال الشافعي: قال الله جلّ ثناؤه: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)(الأنعام: من الآية97).

وقال: (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (النحل:16).

قال الشافعي: فكانت العلامات: جبالاً، وليلاً، ونهاراً، وفيها أرواح (جمع ريح) معروفة الأسماء، وإن كانت مختلفة المَهَابّ، وشمساً وقمراً ونجوماً، معروفة المطالع والمغارب والمواضع من الفلك، فعرض عليهم الاجتهاد في التوجه شطر المسجد الحرام بما دلّهم عليه مما وصفت.

الإمام الشافعي ينظر في السماء ويدوّن المعلومات القيمة عن الفلك

نظرٌ ثاقب

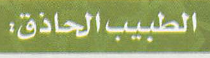
قال أحمد بن محمد بن بنت الشافعي: سمعت أبي يقول: كان الشافعي وهو حَدَثٌ ينظر في النجوم (أي يتعلم علم الفلك والتنجيم) وما ينظر في شيء إلا حفظه وفهمه، وكان له صديق وعنده جارية قد حبلت، فقال: إنها تلد إلى سبعة وعشرين يوماً بولد يكون في فخذه الأيسر خال أسود، ويعيش أربعة وعشرين يوما، ثم يموت، فجاءت به على النعت الذي وصف، وانقضت مدته فمات، فأحرق الشافعي بعد ذلك الكتب، وما عاود النظر في شيء منها.

تعلّم الشافعي علم النجوم، فكان ينظر إلى النجوم، وما ينظر في شيء إلا حفظه وفهمه، ثم ترك النظر فيها، وأحرق الكتب التي كانت عنده فيها.

وقال في ذم المنجمين:

خَبِّرا عنِّي المنجمَ أنِّي ... كافرٌ بالذي قضتهُ الكواكب

عالماً أنَّ ما يكونُ وما كان ... قضاءٌ من المهيمنِ واجب



الطبيب الحاذق:

الفراسة

هي القدرة على تحليل الشخصيات من خلال النظر في الوجوه والعلامات الظاهرة، وقد عُني الشافعي بالفراسة علماً وتجربة، ومارسها ممارسة فعلية، وأخذها حين لازم الأعراب في البادية وهو صغير، ثم أخذ كتبها من اليمن.

التحسُّر على الطب

قال حرملة: سمعتُ الشافعي يقول: اثنان أغفلهما الناس: الطب والعربية.

وكان الشافعي يتحسّر على ما ضيّع المسلمون من علم الطب، فعن حرملة بن يحيى قال: كان الشافعي يتلهّف على ما ضيّع المسلمون من الطب، ويقول: ضيّعوا ثلث العلم، ووكلوه إلى اليهود والنصارى.

مناظرة طبيـة

إضافة إلى كل ما تقدم من علم الشافعي رحمه الله، فقد كان ذا معرفة واسعة بعلم الطب، فعن أبي الحصين المصري أنه قال: سمعتُ طبيباً بمصر محذقاً، فقال: ورد الشافعي مصر، وقعد إليّ، فما زال يذاكرني بالطب، حتى ظننتُ أن طبيب العراق ورد إلينا، فقلت: أقرأ عليك شيئاً من كتب أبقراط؟ (الطبيب الأوربي المشهور)، فأشار إلى الجامع، وقال: إن هؤلاء لا يتركونني لك. (أي أن تلاميذي في مسجدي لا يتركوني أتفرغ للطب).

لولا تفرغ الشافعي للعلم لكان من أمهر الأطباء.



الشافعي يناظر أحد الأطباء المصريين حتى ظنه أنه طبيب العراق وقد جاء إلى مصر

الحضّ على تعلم الطب

وكان يحضّ على تعلّم الطب، قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي رحمه الله يقول: العلم علمان: علم فقه الأديان، وعلم طب الأبدان.

وقال: أفضل علوم الدين الفقه، وأفضل علوم الدنيا الطب.

وفي رواية محمد بن عبد الله بن عبد الحكم يحكي عن الشافعي رحمه الله، أنه قال: علم الفقه للأديان، وعلم الطب للأبدان، وما سوى ذلك فبُلْغَةُ مجلس. (أي ترف فكري).

قال الربيع بن سليمان: قال الشافعي: إذا دخلت بلدة ولا تجد فيها حاكماً عدلاً، ولا ماء جارياً، ولا طبيباً رفيقاً فلا تسكنها.

وعن الشافعي أنه قال: لا تسكن بلدةً لا يكون فيها عالم ينبئك عن دينك، ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك.

علم الفقه، وعلم الطب، لا بد منهما في كل مكان، وإلا فلا خير في هذا المكان.

دواء لمن لا دواء له

وقال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: ثلاثة أشياء ليس للطبيب فيها حيلة: الحماقة، والطاعون والهرم.

وعن يونس بن عبد الأعلى قال: قال لي الشافعي: ما اغتسلت في شتاء قط ولا صيف من جنابة، إلا بالماء الحار.

عالم في الغذاء

وأُثِر عن الشافعي بعض الأقوال في الطب، منها:

ما رواه يونس بن عبد الأعلى قال: قال الشافعي: لم أرَ شيئاً أنفع للوباء من دهن البنفسج، يدهن به ويشرب.

وعن الربيع بن سليمان قال: قال أبو عثمان محمد بن محمد بن إدريس الشافعي: كان أبي إذا أخذته الحمّى طلب أتْرُجّة يعصر ماءها ويشربه خوفاً على لسانه.

وقال حرملة: سمعت الشافعي يقول: لا تأكلنَّ بيضاً مسلوقاً بليلٍ أبداً، فقلَّ من أكله بليل فسلم.

وقال حرملة: رأيت الشافعي ينهى عن أكل الباذنجان بالليل.

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: عجباً لمن يخرج من الحمّام ثم لا يأكل: كيف يعيش؟ وعجباً لمن يحتجم ثم يأكل (يعني من ساعته) كيف يعيش؟
وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: الفول يزيد في الدماغ، وأكل اللحم يزيد في العقل.
وعن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: ثلاثة أشياء دواء الذي لا دواء له وأعيا الأطباء أن تداويه: العنب، ولبن اللّقاح، وقصب السكر.

لم يترك الشافعي علماً إلا ونبغ فيه، وأثرت عنه حكم وأقوال في شأنه.



الغداء الباكر

قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: قال لي هارون الرشيد: يا محمد، بلغني أنك تُباكِرُ الغداء.
قلت: نعم يا أمير المؤمنين.
قال: ولم ذاك؟
قلت: يا أمير المؤمنين لأربع خصال.
قال الرشيد: وما هي؟
قلت: برد الماء، وطيب الهواء، وقلة الذباب، ثم أحسم طمعي عن موائد غيري.
قال الرشيد: فهذا بيت القصيد.

للشافعي نصائح في الغذاء السليم ونصائح طبية قيمة.

الشافعي يقدم نصائح طبية للرشيد أمير المؤمنين

العقل السليم في الجسم السليم

وقال الشافعي: لا يسكن العقل في الجسم الغليظ.
ويروي في ذلك قصة طريفة، قال الشافعي: كان ملك في الزمان الأول، وكان مثقلاً كثير اللحم، لا ينتفع بنفسه (أي لا يستطيع الحركة من شدة سمنته)، فجمع المتطببين، وقال: احتالوا لي حيلة يخفّ عني لحمي هذا قليلاً. فما قدروا له على صفة.
قال الشافعي: فنُعِتَ له رجل عاقل أديب متطبب، فبعث إليه فجيء به.
فقال الملك: تعالجني ولك الغنى؟
قال الحكيم: أصلح الله الأمير، أنا متطبّب ومنجّم، دعني أنظر الليلة في طالعك، أي دواء يوافق طالعك فأسقيك.
قال: فغدا عليه في صباح اليوم التالي، فقال الحكيم: أيها الملك، الأمان.
قال الملك: لك الأمان.
قال الحكيم: رأيت طالعك يدل على أن عمرك شهر (أي ستموت بعد شهر)، فإن أحببت حتى أعالجك، فإن أردت بيان ذلك فاحبسني عندك، فإن كان لقولي حقيقة فخلِّ عني، وإلا فاستقص عليّ (أي إذا لم أعالجك من سمنتك أو لم تمت فعاقبني).
فحبسه، ثم رفع الملك الملاهي، واحتجب عن الناس، وخلا وحده مغتماً، ما يرفع رأسه، يعدّ أيامه، كلما انسلخ يوم ازداد غمّاً حتى هزل وجفّ لحمه، ومضى لذلك ثمانية وعشرون يوماً.
فبعث إلى الحكيم فأخرجه من السجن، فقال الملك: ما ترى؟
قال: أعزّ الله الملك، أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب، والله ما أعرف عمري، فكيف أعرف عمرك؟ إنه لم يكن عندي من دواء إلا الغم (أي لم أجد علاجاً للسمنة عندك إلا أن تغتم فلا تأكل)، فلم أقدر أن أجلب إليك الغم إلا بهذه العلّة (أي بهذه الحيلة فأخبرتك أنك ستموت خلال شهر)، فأذابت شحم الكلى.
قال الشافعي: فأجازه وأحسن إليه.
أي عقل وأي فهم لدى الشافعي؟! لقد أضاف إلى كل معارفه وعلومه السابقة علم الطب، فكان ذا معرفة واسعة فيه، بل وكان يناظر الأطباء فيظنون أنه لا يحسن غير الطب، وله فوائد كثيرة في هذا المجال.

لم يترك الشافعي علماً إلا ونبغ فيه، وأثرت عنه حكم وأقوال في شأنه.

4 علم الأنساب

مما عُني به الشافعي في سنه المبكرة: (علم الأنساب)، فقد أخذ منه بحظ وافر، حين كان يرحل إلى البادية، يشافه الأعـراب، ويسمع منهم، فقد مهر في معرفة تاريخ العرب وأنسابها، مع ما حفظه من شعرها وآدابها.



الشافعي يحدث ابن هشام والناس حوله بأنساب الرجال والنساء وهم يتعجّبون من كثرة علمه وقوة ذاكرته

قال المزني: قدم علينا الشافعي، وكان بمصر ابن هشام صاحب المغازي، وكان علامة أهل مصر في الغريب والشعر، فقيل له: تأتي الشافعي، فرفض ثم بعد ذلك قيل له: إنه وإنه.. (أي ذكروا له تميز الشافعي ومواهبه الخاصة).
فأتاه، فذاكره أنساب الرجال، فقال له الشافعي -بعد أن تذاكرا-: دع عنك أنساب الرجال، فإنها لا تذهب عنا ولا عنك، وخذ بنا في أنساب النساء، فلما أخذوا فيها، بقي ابن هشام(وسكت فلم يعرف أنساب الكثيرات منهن). وكان بعد ذلك يقول: ما ظننت أن الله خلق مثل هذا. (متعجباً من درجة العلم الذي وصل إليه الشافعي).

الشافعي بحر العلوم الزاخر، لم يترك علماً مفيداً في البادية إلا وتعلمه، فإلى جانب الفقه والتفسير، والأشعار والآداب، تعلم علم الأنساب، وحفظ أنساب الرجال وأنساب النساء أيضاً.

5 الذاكرة والتفكير

الذاكرة الحاضرة

لقد آتى الله الشافعيَ حظاً من المواهب والصفات التي رفعته في علمه وخلقه ودينه، وجعلته في الذروة الأولى من قادة الفكر، وزعماء الرأي.
فقد كان رضي الله عنه قوياً في إدراكه العلمي، ذا ذاكرة واعية حافظة، يقرأ الموطأ فيحفظه، ثم يقرؤه عن ظهر قلب.

نور العلم يؤتيه الله من يستحقه، ولقد آتى الله الشافعي هذا النور، فكان من قادة الفكر وزعماء الرأي، بإدراكه العلمي، وذاكرته الحافظة.

عميق الفكرة

وكان عميق الفكرة؛ لا يكتفي من الأمور بدراسة ظاهرها، بل يذهب إلى أعمق أغوارها، وكان بعيد المدى في الفهم لا يقف عهد حدّ حتى يصل إلى الحق كاملاً فيما يراه، ولا يكتفي في دراسة الحوادث بالجزئيات، بل يتجه إلى الكليات، وكانت نتيجة ذلك أن وضع علم أصول الفقه.

الشافعي بتفكيره العميق، وسبره أغوار الأمور، واتجاهه للكليات استطاع أن يضع علم أصول الفقه.



الفصل الثاني

القدوة الحسنة



1 عبادة وإيمان



2 الشافعي الزاهد

3 كريم جواد

4 خُلق رفيع

5 أدب المناظرة



1 عبادة وإيمان

الشافعي كما هو إمام في الاجتهاد والفقه، هو إمام أيضاً في إيمانه وتقواه وورعه وعبادته، كان البويطي يقول: "قد رأيت الناس، والله ما رأيت أحداً يشبه الشافعي ولا يقاربه في صنف من العلم، والله إن الشافعي كان عندي أورع من كل من رأيته ينسب إلى الورع".

تقسيم الليل

وقال الربيع بن سليمان: كان الشافعي قد جزّأ الليل ثلاثة أثلاث: الثلث الأول يكتب، والثلث الثاني يصلي، والثلث الثالث ينام.

وقال أيضاً: قد نمت في منزل الشافعي ليالي كثيرة، فلم يكن ينام من الليل إلا أيسره.

وقال بحر بن نصر: ما رأيت ولا سمعت كان في عصر الشافعي أتقى لله ولا أورع من الشافعي ولا أحسن صوتاً منه بالقرآن.

تميز الشافعي بالتقوى والورع والعبادة والحرص على العبادة وقلة النوم، يقضي معظم الليل بالكتابة والعلم

الرجاء والرهبة

وعن الكرابيسي قال: بتُّ مع الشافعي ثمانين ليلة، فكان يصلي نحو ثلث الليل، وما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة، وكان لا يمرُّ بآية رحمة إلا سأل الله لنفسه وللمؤمنين أجمعين، ولا يمرُّ بآية عذاب إلا تعوّذ بالله منها وسأل النجاة لنفسه ولجميع المؤمنين، فكأنما جمع له الرجاء والرهبة معاً.

الإمام الشافعي الفقيه، اللغوي، الأصولي، هو أيضاً عابد ورع، قد جزّأ ليله ثلاثة أجزاء: الأول يكتب، والثاني يصلي، والثالث ينام.

صفاء وإخلاص

ومع هذا كله كان الشافعي رحمه الله صافي النفس من أدران الدنيا وشوائبها، مخلصاً في طلب الحق لا يبتغي سواه، وفي الحكمة المشرقية: (أن الاتجاه المخلص في طلب الحقائق يقذف في القلب بنور المعرفة، ويوجد في النفس صفاء تتضح به الحقائق، ويدرك به العقل، ويستقيم الفكر، ويجعل العبارات صادقة التصوير للمعاني الصحيحة، وبذلك يكون الرأي قويماً، والتعبير سليماً).

وإخلاص الشافعي في طلب الحقائق لازمه في كل أدوار حياته، فكان يطلب الحق أنّى كان، فإذا تعارض إخلاصه مع ما يألفه الناس من آراء؛ أعلن آراءه في جرأة وقوة، وكان مخلصاً لشيوخه، لكن إخلاصه لهم لم يمنعه من إظهار الحق إذا كان مخالفاً لهم، وقد أظهر مخالفة الإمام مالك فيما رآه الحق، بعد أن بلغه أن الناس في الأندلس يستسقون بقلنسوة مالك؛ فأعلن كتابه فيه للناس؛ ليعلموا أنه بشر يخطئ ويصيب.

الإخلاص في طلب الحق يقذف في القلب نوراً، وفي النفس صفاء، يجعلها تصل للحق، وتعلنه في قوة وجرأة، الشافعي يعلن مخالفة مالك فيما رآه الحق.



2 الشافعي الزاهد

قسوة القلب

قال الشافعي: طلبُ فُضول الدنيا عقوبةٌ، عاقبَ الله بها أهل التوحيد.

مكانة الدنيا

وقال: لو أن الدنيا عِلْقٌ يباع في السوق لما اشتريته برغيف؛ لما أعلم ما فيه من الآفات.

وقال المزني: سمعت الشافعي يقول: من غلبت عليه شدة الشهوة لحب الدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع.

وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: خير الدنيا والآخرة في خمس خصال: غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، ولباس التقوى، والثقة بالله عز وجل على كل حال.

وقال الربيع أيضاً: قال لي الشافعي: يا ربيع عليك بالزهد، فالزهد على الزاهد أحسن من الحلي على المرأة الناهد.

وقال الشافعي: من أحب أن يفتح الله قلبه، ويرزقه الحكمة، فعليه بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء، وبغض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب.

غنى النفس

ويقول الشافعي في غنى النفس:

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن ... على حالة إلا رضيتَ بِدونها

ويقول للمتمسكين بالدنيا الطامعين بها:

يا من يعانق دنيا لا بقاء لها ... يمسي ويصبح في دنياه سفّارا

هلا تركت لذي الدنيا معانقةً ... حتى تعانق في الفردوس أبكارا

إن كنتَ تبغي جنان الخلد تسكنها ... فينبغي لك ألّا تأمن النارا

طلاق الدنيا

وينبهنا إلى أن الحكيم هو الذي يطلّق الدنيا ويتجرّد للآخرة، فيقول:

إن لله عباداً فُطنا — طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا — أنها ليست لحيٍّ وطنا

جعلوها لُجّةً واتخذوا — صالح الأعمال فيها سُفنا

الدنيا ليست مستقراً ولا وطناً لأحد، فالعاقل من تزوّد منها لآخرته، ولم يتعلق بها.

إحياء القناعة

وله أبيات عظيمة تُسمّى شعر الزهد، يقول فيها:

أمتُّ مطامعي فأرحت نفسي — فإن النفس ما طمعت تهونُ

وأحييتُ القنوعَ وكان ميتاً — ففي إحيائه عرضي مصون

إذا طمعٌ يحلُّ بقلب عبدٍ — عَلَتْهُ مهانةٌ وعلاه هونُ

غنيٌّ بلا مال

ويتحدث عن معاني الزهد في الدنيا، والرضا بقضاء الله عز وجل، وانتظار النصر من عند الله، وعدم تمني ما بأيدي الناس، وعدم الوقوف عند من بيده المال، وعدم الغرور، فيقول:

بَلَوْتُ بني الدنيا فلم أرَ فيهمُ — سوى من غدا والبخل ملءُ إهابِهِ

فجرّدْتُ من غمد القناعة صارماً — قطعتُ رجائي منهمُ بذبابِهِ

فلا ذا يراني واقفاً في طريقه — ولا ذا يراني قاعداً عند بابِهِ



غنـيٌ بـلا مـالٍ عـن الـنـاس كلهم
وليس الغني إلا عن الشيء لا بهِ

إذا ما ظالم استحسن الظلم مذهباً
ولـجَّ عُـتُـواً فـي قـبـيـح اكـتـسـابـهِ

فَكِلْهُ إلـى صـرف الـلـيـالي فإنها
ستدعي له ما لم يكن في حسابهِ

فـكـم قـد رأيـنـا ظـالـمـاً مـتـمـرداً
يرى النجمَ تيهاً تحت ظلِّ ركابهِ

فـعـمّـا قـلـيـلٍ وهـو فـي غـفـلاتـه
أناختْ صروفُ الحادثاتِ ببابهِ

فأصبح لا مـالٌ ولا جـاهُ يُـرتجى
ولا حسناتٌ تلتقي في كتابهِ

وجُـوزي بـالأمـر الـذي كـان فـاعلاً
وصبّ عليه اللهُ سوط عذابهِ

الغنى الحقيقي؛ غنى النفس، وعدم الوقوف بالأبواب، واليقين بأن دوام الحال من المحال.

الغيب المجهول

ويقول أيضاً:

ومتعب العيش مرتحلاً إلى بلدِ
والموتُ يطلبه من ذلك البلدِ

وضاحكٍ والمنايا فوق مفرقه
لو كان يعلم غيباً مات من كَمَدِ

من كان لم يؤتَ علماً في بقاء غدِ
ماذا تفكره في رزقِ بعدِ غدِ

الزهد الحقيقي من أخلاق الكبار، وشِيَم الكرام، ولا يليق برجل كبير عظيم كالشافعي إلا أن يكون زاهداً في الدنيا، غير طامع فيها، وكذلك كان، بل أكثر من ذلك، فكان يحض على الزهد ويدعو إليه.

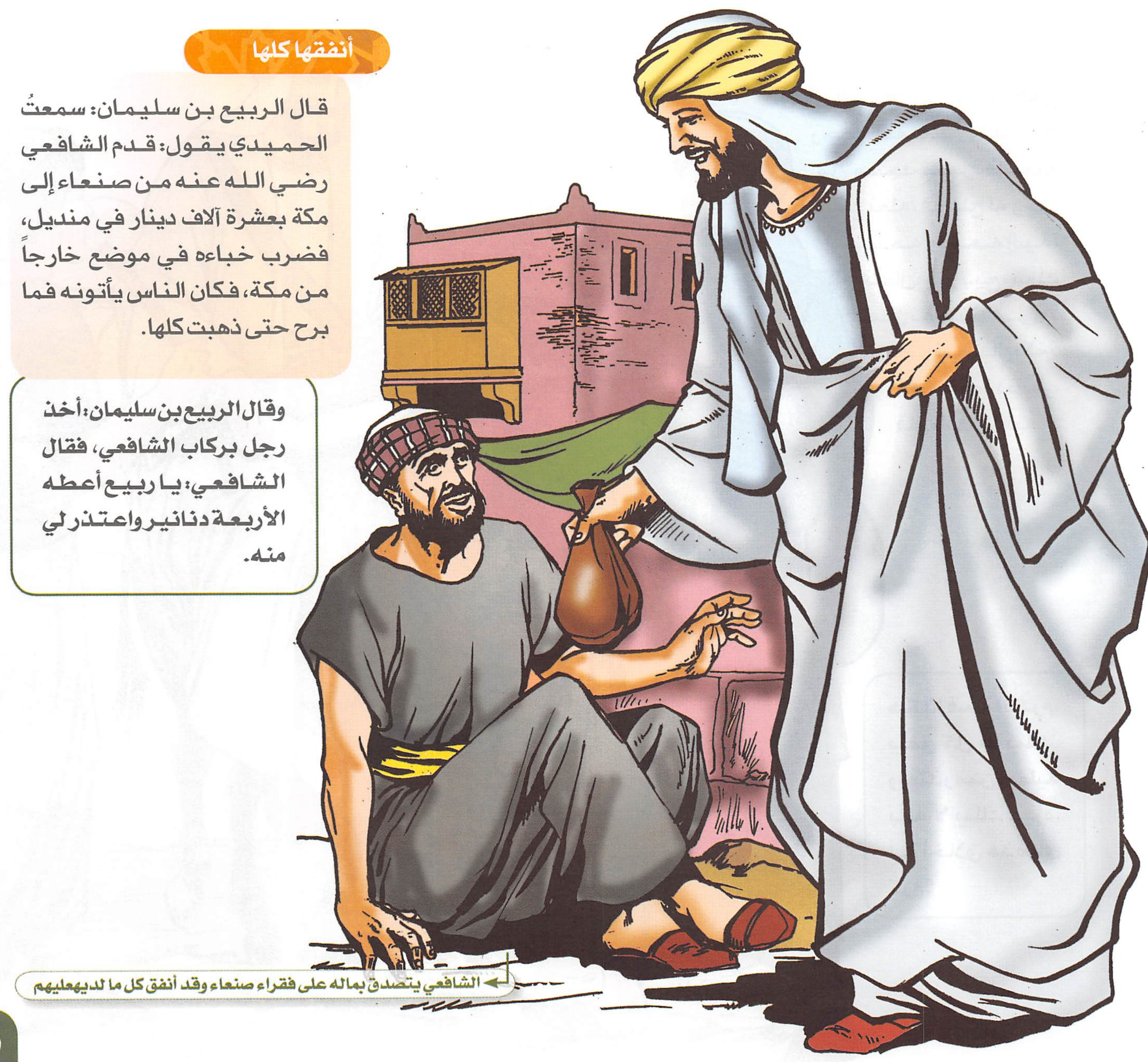
3 كريم جواد:

الإمام الشافعي القرشي المطلبي، كان في جوده منقطع النظير، مع أنه كان في أكثر حياته فقيراً، ما عنده قوت ليلة، فإذا أتاه المال أنفقه وتصّدق به.

أنفقها كلها

قال الربيع بن سليمان: سمعتُ الحميدي يقول: قدم الشافعي رضي الله عنه من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار في منديل، فضرب خباءه في موضع خارجاً من مكة، فكان الناس يأتونه فما برح حتى ذهبت كلها.

وقال الربيع بن سليمان: أخذ رجل بركاب الشافعي، فقال الشافعي: يا ربيع أعطه الأربعة دنانير واعتذر لي منه.



الشافعي يتصدق بماله على فقراء صنعاء وقد أنفق كل ما لديهعليهم

ادفعها إليه

وعن الربيع أيضاً قال: كان الشافعي راكبَ حمارٍ، فمرّ على سوق الحذّائين، فسقط سوطه من يده، فوثب غلام من الحذّائين، فأخذ السوط ومسحه بكُمِّه وناوله إياه، فقال الشافعي لغلامه: ادفع تلك الدنانير التي معك إلى هذا الفتى، قال الربيع: فلست أدري كانت تسعة دنانير أو سبعة.

وقال الربيع: كنا مع الشافعي رحمه الله تعالى وقد خرج من مسجد مصر، فانقطع شِسْعُ نعله، فأصلح له رجل شِسْعه ودفعه إليه، فقال: يا ربيع، معك من نفقتنا شيء؟ قلت: نعم، قال: كم؟ قلت: سبعة دنانير، قال: ادفعها إليه.



الشافعي يعطي ماله لأحد الصبية وقد التقط له سوطه

هكذا قمة الكرم، ينفق كل ما يملك، ويعتذر ممن يعطيه بأنه لا يملك غيره، أية أخلاق هذه وأي كرم؟

كم أصدقتها؟

وعندما تزوج خادمه الربيع بن سليمان سأله الشافعي: كم أصدقتها؟ (أي مهرها).
قال الربيع: ثلاثين ديناراً.
فقال الشافعي: كم أعطيتها؟ (أي مقدم المهر).
قال الربيع: ستة دنانير. فصعد داراً وأرسل إليه صرة فيها أربعة وعشرون ديناراً.
وقال الربيع: كان الشافعي رحمه الله تعالى إذا سأله إنسان أن يصله بشيء يَحْمَارُّ وجهُهُ حياء من السائل، ويبادر بإعطائه ما سأله، ولقد سأله إنسان يوماً وهو راكب شيئاً فتغيّر لونه (لأنه لم يكن يحمل معه أي مال)، وقال: أين تكون حتى أبعث إليك بحاجتك؟ فلما رجع إلى منزله بعث إليه بما سأله.
يستحي ويتغير لونه إن لم يكن معه ما يعطي السائل، أين نحن منهم؟ إنها أخلاق النبيين عليهم السلام..
وقال الربيع: قد سمعنا بالأسخياء، قد كان عندنا قوم من الأسخياء بمصر، وأهل الفضل رأيناهم، ولكن ما رأينا مثل الشافعي، ولا سمعنا أحداً في زمانه كان مثله.
قال الربيع: وكان الشافعي يقول: أهل اليمن فيهم السخاء.
قال الربيع: قال الحميدي: فأين سخاء أهل اليمن من سخاء الشافعي رحمه الله تعالى؟ أولئك سخاؤهم من فضلٍ معهم، والشافعي يسخو بكل ماله.

الجود بالموجود

هكذا كان الشافعي غاية في الكرم، رغم أنه قليل المال، ضيق ذات اليد، فكان يجود بكل ما عنده، ولو بقي جائعاً، ويقول في ذلك:

أجـودُ بمـوجـودٍ ولـو بـتُّ طـاويـاً ... على الجوع كشحاً والحشا يتألمُ
وأُظهِرُ أسباب الغنى بين رفقتي ... لـيـخـفـاهـم حـالـي وإنـي لمعـدمُ
وبيني وبـين الله أشكو فاقتي ... حقيقاً، فإن الله بالحالِ أعلمُ

بت طاوياً: لم آكل شيئاً..
كشحاً: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف..
الحشا: ما في البطن..
أشكو فاقتي: فقري وحاجتي..

لم يرَ أهل زمانه مثله، يجود بالموجود، ويُظهر أسباب الغنى، ولا يشكو فاقته إلا إلى الله.

مصيبة شديدة

وكان رحمه الله من شدة كرمه وجوده، لا يتألم أكثر من ألمه عندما يطلب أحد منه المساعدة، فلا يستطيع أن يساعده، ويضطر للاعتذار.

فيقول في أبيات جميلة:

يا لَهَفَ نفسي على مال أفرقه   على المقلين من أهل المروءاتِ

إن اعتذاري إلى من جاء يسألني   ما ليس عندي لمن إحدى المصيبات

نفقة أهل الفضل

وقيل للربيع: كيف لباس الشافعي؟

قال: كان مقتصداً فيه.. إلى أن قال: وكان لا يأتي عليه يوم إلا يتصدق، ويتصدق بالليل، ولا سيما في رمضان، ويتفقد الفقراء والضعفاء، وكانت نفقته على أهله ما يتعارف من سعة التجار وأهل الفضل، وكان أكرم الناس مجالسة.

وقال البويطي: قدم الشافعي مصر، وكانت زبيدة ترسل إليه برزم الثياب والوشي فيقسمها بين الناس.

ويقول أبو ثور عن كرم الإمام الشافعي وجوده: كان الشافعي قلّما يمسك الشيء من سماحته.

أفضل الكرم ما يكون عن فقر، والشافعي رغم فقره وقلة ذات يده كان من أكرم الناس وأشدهم سخاءً، لا يأتي عليه يوم إلا يتصدق، ويتصدق بالليل، ولا سيما في رمضان، ويتألم كثيراً إن سُئل ولم يكن معه فيضطر للاعتذار.



زبيدة ترسل للشافعي الثياب ليوزعها على الناس

4 خلق رفيع

عدم الرد على السفهاء

وللإمام الشافعي أبيات في السماحة وحُسن الخُلق، والتعامل مع الناس:

يخاطبني السفيه بكل قُبحٍ فأكره أن أكون له مجيباً

يزيد سفاهةً فأزيدُ حلماً كعودٍ زاده الإحراقُ طيباً

ويقول:

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخيرٌ من إجابته السكوتُ

فإن كلّمته فرّجتَ عنه وإن خلّيتَهُ كَمَداً يموتُ

السكوت في موضعه

ويقول:

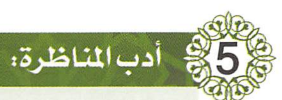
إذا سبّني نذلٌ تزايدتُ رفعةً وما العيب إلا أن أكون مسابِبُه

ولو لم تكن نفسي عليّ عزيزةً لمكنتها من كلِّ نذلٍ تحاربُه

ولو أنني أسعى لنفعي وجدتَني كثير التواني للذي أنا طالبه

ولكنني أسعى لأنفعَ صاحبي وعارٌ على الشبعانِ إن جاع صاحبُه

كان الشافعي على خُلق رفيع، وطبع كريم، ونفس طيبة سمحة، فإن سبَّه أحد، لم يرد عليه، بل يقابله بالصفح والحلم والعفو.



5 أدب المناظرة:

وكان الإمام الشافعي لطيفاً في مناظراته، صاحب ذكاء وفطنة وحجة، حتى أنه يندر أن يخرج مَن أمامه إلا وقد اقتنع، وفي نفس الوقت كان صاحب أدب في حواره، يقول ابنه محمد أبو عثمان: ما سمعتُ أبي يناظر أحداً قط فيرفع صوته.

الهدف السامي

ويقول الشافعي: ما كلّمتُ أحداً إلا أحببت أن يُوفق ويُسدّد ويُعان. (وليس كما يفعل الناس اليوم من حبهم للانتصار وأن يخطئ خصمهم).

ويقول: ما ناظرتُ أحداً فأحببتُ أن يخطئ.

ويقول أيضاً: ما ناظرتُ أحداً قط إلا على النصيحة، وما ناظرتُ أحداً قط على الغَلَبة.

ما أجمل هذه الأخلاق، وهذا الأدب، وما أجمل أن نقتديَ بهؤلاء الأئمة، ونتحلّى بهذه الآداب، فيكون هدفنا دائماً الوصول إلى الحق، وليس الانتصار على المخالفين وتمني خطئهم.

الأدب مع الذكاء والفطنة، وقوة الحجة، كانت صفات الشافعي في مناظراته، لم يرفع صوته في مناظرة قط، وما ناظر أحداً إلا على النصيحة.

وقد قال في أدب المناظرة:

إذا ما كنتَ ذا فضلٍ وعلمٍ ... بما اختلفَ الأوائلُ والأواخر

فناظِرْ مَن تناظر في سكونٍ ... حليماً لا تلحُّ ولا تكابر

يفيدُكَ ما استفاد بلا امتنانٍ ... من النكتِ اللطيفةِ والنوادر

وإياك واللجوجَ ومَن يرائي ... بأني قد غلبتُ ومَن يُفاخِر

فإن الشرَّ في جنبات هذا ... يُمَنّي بالتقاطع والتدابر

على الرأس والعين

ولم يكن يعتقد أنه أحاط بسنة رسول الله ﷺ علماً، بل كان يحث أصحابه على طلب الحديث، وإن رأوا حديثاً صحيحاً يخالف ما يقرره، فليرفضوا رأيه، وليأخذوا الحديث.

جاء في معجم ياقوت بسند إلى الربيع بن سليمان أنه قال: "سمعت الشافعي وقد سأله رجل عن مسألة، فقال الشافعي: يروى عن النبي ﷺ أنه قال: كذا وكذا.

فقال له: يا أبا عبد الله، أتقول بهذا؟ (أي هل تفتي حسب ما ورد في هذا الحديث؟).

فارتعد الشافعي واصفر لونه، وحال وتغير، وقال: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني، إذا رويتَ عن رسول الله ﷺ ولم أقل به؟ نعم على الرأس والعين".

ويقول الربيع بن سليمان: "سمعت الشافعي يقول: ما من أحد إلا وتذهب عنه سنة لرسول الله ﷺ، وتعزب، فمهما قلتُ من قول، أو أصَّلْتُ من أصل، فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلتُ، فالقول ما قاله رسول الله ﷺ، وهو قولي"، وجعل يردد هذا الكلام.



الشافعي يجيب عن مسألة لرجل سأله عنها وهو يتقيد بما جاء في حديث رسول لله ﷺ

نكتــة لطيفــة

من نكته اللطيفة: أنه سمع حديثاً يرويه أبو العالية الرياحي يقول فيه: على الضاحك الوضوء، فيُسأل الشافعي عن هذا الحديث، فيقول: حديث الرياحي، رياح (لا قيمة له).

ويسمع حديثاً آخر عن حرام بن عثمان -وهي أحاديث موضوعة- فيقول الشافعي: حديث حرام كاسمه: حرام.

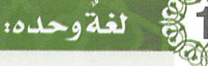
حديث الرياحي: رياح، وحديث حرام: كاسمه حرام.



روح مرحة وخفة دم وظرافة جميلة يتمتع بها الإمام الشافعي حين يجيب عن أسئلة الناس

الفصل الثالث

اللغوي الأديب



لغةٌ وحده:

قبل أن نتحدث عن الإمام الشافعي الفقيه، سنقف مع الإمام الشافعي اللغوي.

الشافعي عربي قرشي، وحسبه ذلك ليكون صحيح الكلام وفصيحه، وقد كان النبلاء من العرب، وخصوصاً منهم القرشيون يحرصون على سلامة لغتهم خشية أن يدب إليها الفساد الذي كثر في المائة الثانية بعد العهد الأموي، والشافعي لم يكتفِ بذلك؛ بل رحل إلى هذيل -كما أشرنا سابقاً- ليحفظ سليقته، ويزداد معرفةً وفقهاً بلغتها، حتى صار كأنه واحد منها، يحتج بكلامه كما يحتج بكلامها.

قال أبو الوليد بن أبي الجارود: "كان يقال: إن محمد بن إدريس الشافعي لغة وحده، يُحتج به، كما يُحتج بالبطن من العرب".

حَسْبُ الشافعي أنه عربي قرشي، ليكون فصيحاً، فإذا أضفت إليه تربية في البادية أيقنا بقدرته اللغوية، ومدى تمكنه فيها.

قوي البيان

وكان الشافعي رحمه الله، قوي البيان، واضح التعبير، بيّن الإلقاء، أوتي مع فصاحة لسانه وبلاغة بيانه، وقوة جنانه، صوتاً عميق التأثير، يعبّر بنبراته، كما يوضح بعباراته، ولِما في صوته من تأثير عميق رغب مالك رحمه الله في سماع الموطأ منه حتى آخره، وبلغ من إجادته البيان أن سماه ابن راهويه: (خطيب العلماء).

فصاحة اللسان وبلاغة البيان، مع قوة الجَنان، والصوت المؤثر، جعلت الشافعي خطيب العلماء.

الشافعي يحدث الناس باللغة والأدب والناس يعتبرونه حجة لغوية

توجيه الشعر



وقال مصعب الزبيري: "كان أبي والشافعي يتناشدان الشعر، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظاً، ثم قال: لا تُعلِمْ بهذا أحداً من أهل الحديث، فإنهم لا يحتملون هذا".

وكان فيما بعد يستغل هذا الشعر في قضايا الفقه، ووجّه شعره لقضية الإيمان والأخلاق، فنجد المعاني التي في شعره معاني عميقة وأصيلة، كما أنّ تعمقه في اللغة أعانه في قضية التفسير، فكان من أحسن الناس تفسيراً، لأن فهم القرآن الكريم وفهم حديث النبي ﷺ ينطلق أساساً من فهم اللغة العربية السليمة.

الشافعي لغةٌ وحده، يُحتج به كما يُحتج بالبطون من العرب، وهذا التمكن في اللغة أعانه في فهم القرآن والأحاديث، فكان من أحسن الناس تفسيراً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

مصعب الزبيري يدلي شهادة ظيمة في الشافعي



2 شهادات من عظماء الأدباء

شهادة الأصمعي

الأصمعي عالم من أكبر علماء الأدب العربي، مؤلف جليل، وراوية ثقة للغة والشعر والنوادر، وإذا ذُكرت قضايا اللغة وسُميت أسماء اللغويين يُذكر سيبويه، ويُذكر الأصمعي، نسمعهُ يسونَ: قرأتُ شعر الشنفرى على الشافعي بمكة، ويقول: قرأتُ شعر الشنفرى على علّامة بمكة يقال له: محمد بن إدريس الشافعي، فأنشدني لثلاثين شاعراً أساميهم: عمرو.

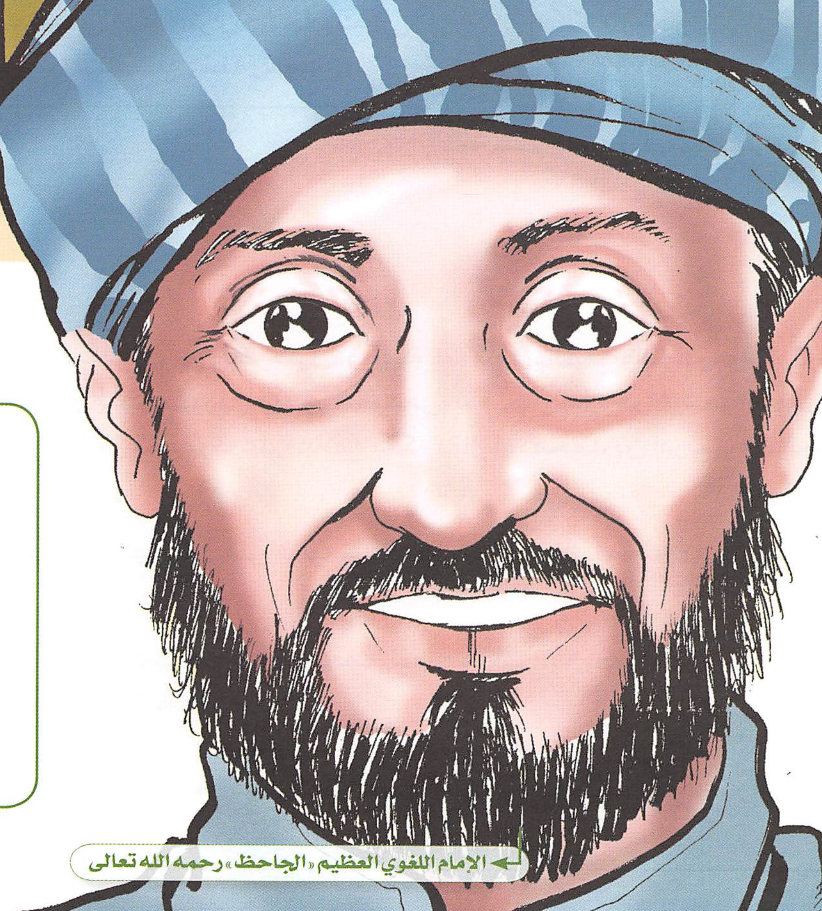
وقال الأصمعي أيضاً: صححتُ أشعار الهذليين على شاب من قريش بمكة، يُقال له: محمد بن إدريس الشافعي.

ولم يقتصر الشافعي على حفظ أشعار الهذليين، وإنما كان يحفظ لغيرهم كثيراً، قال محمد بن عبد الله ابن الحكم: سمعتُ الشافعي يقول: "أروي لثلاثمائة شاعر".

تمكن الشافعي في اللغة وحفظ الأشعار، جعل كبار علماء اللغة والأدب كالأصمعي يصحح أشعار الهذليين وغيرهم على الشافعي.

شهادة الجاحظ

هكذا كان تمكن الإمام الشافعي من اللغة، وقد استخدم هذه اللغة الحجة في فهم الكتاب والسنة، وكان يستشهد على تفسيره للحديث بأشعار العرب، ولغة العرب، فكان قمة في اللغة، وقمة في الفقه، مع عقل عظيم ونفس طيبة، وقلب كبير، وشعر أصيل، تجمعت كلها لدى الإمام الشافعي، مما جعل من يخالفه في الفكر -فضلاً عمن يوافقه- يُقرُّ بعظمة هذا الإمام في اللغة، فهذا واحد من الذين لا يُقارنون في اللغة وهو الجاحظ يقول: "نظرتُ في كتب هؤلاء النَبَغة، الذين نبغوا في العلم، فلم أرَ أحسن تأليفاً من المطلبي، كأن فاه ينظم دراً إلى درّ". (أي كأنه اللؤلؤ المصفوف في عقد).



الإمام اللغوي العظيم «الجاحظ» رحمه الله تعالى

العقل العظيم، والنفس الطيبة، والقلب الكبير مع الشعر الأصيل، تجمعت كلها لدى الشافعي، فجعلت من يخالفه -فضلاً عمن يوافقه- يقرُّ بعظمته، ويشهد له كثير من العلماء بهذا الفضل والنبوغ.

شهادة ابن هشام

ونسمع إلى إمام عظيم آخر من عظماء اللغة ومن علماء التاريخ، وهو عبد الملك بن هشام صاحب السيرة المشهورة بسيرة ابن هشام، وكان صديقاً للشافعي وجليساً له بمصر، يتحدث عن بلاغة الشافعي ونصاعة بيانه، فيقول: "طالت مجالستنا محمد بن إدريس الشافعي فما سمعتُ منه لحنةً قط، ولا كلمة غيرها أحسن منها". (واللحنة: هي الخطأ في اللغة).

وكان ابن هشام إذا شك في شيء من اللغة بعث إلى الشافعي فسأل عنه.

وكان أبو العباس المبرّد صاحب المدرسة اللغوية العظيمة، مدرسة أهل البصرة، يقول: "رحم الله الشافعي كان من أشعر الناس، وآدب الناس، وأعرفهم بالقراءات".



عبد الملك بن صاحب السيرة رحمه الله تعالى

كلام الشافعي در منظوم، يتخير الكلمات، حتى لا يجد السامع كلمات أحسن منها، يسأله أهل اللغة لتمكنه فيها.

شهادة الكبار

-قال أبو عثمان المازي -وكان معاصراً للشافعي-: الشافعي عندنا حجة في النحو.

-وقال الزعفراني: ما رأيتُ أحداً قط أفصح ولا أعلم من الشافعي، كان أعلم الناس وأفصح الناس، وكان يُقرأ عليه من كل الشعر فيعرفه.

-وقال الربيع بن سليمان: كان الشافعي عربيَّ النفس، عربيَّ اللسان.



الإمام أبو عثمان المازي يعتبر الإمام الشافعي حجة في النحو

ليس من السهل أن يعترف الناس لإنسان بالفضل إلا إذا كان فعلاً أهلاً له، وكذلك كان الشافعي، حجة في النحو، حجة في اللغة، يُقرأ عليه من كل الشعر فيعرفه.



3 زعيم اللغة

تبحُّر الشافعي



أبو منصور الأزهري رحمه الله تعالى

-ويقول أبو منصور الأزهري وهو زعيم من زعماء اللغة: عكفتُ على المؤلفات التي ألفها علماء الأمصار، فألفيتُ الشافعي أغزرهم علماً، وأفصحهم لساناً، وأوسعهم خاطراً.

-ويلفتُ نظرنا الربيع بن سليمان خادم الشافعي وصاحبه وتلميذه إلى تبحر الإمام الشافعي في اللغة، فيقول: لو رأيتَ الشافعي وحُسْنَ بيانه وفصاحته لتعجبتَ منه، ولو أنه ألّف هذه الكتب على عربيته التي كان يتكلم بها معنا في المناظرة؛ لم يُقْدَر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه، غير أنه كان في تأليفه يجتهد في أن يوضع للعوام. (فكتابته أبسط من كلامه مراعاة لفهم عوام الناس).

-ورحم الله أبا ثور، كان يقول في الشافعي: "من قال أنه رأى مثل الشافعي في علمه وفصاحته ومعرفته وبيانه وتمكنه؛ فقد كذب".

-وقال أحمد بن أبي سريج: "ما رأيت أحداً أفوه، ولا أنطق من الشافعي".

لو ألّف الشافعي كتبه على عربيته لما قدر على قراءتها إلا القليل، لكنه كان يحاول أن يضعها للعوام.

تنوع المجلس

-وكان أهل العربية يحضرون مجلس الشافعي، لا لشيء إلا أن يستمعوا له ويستفيدوا لغته، قال الحسن بن محمد الزعفراني: "كان قومٌ من أهل العربية يختلفون إلى مجلس الشافعي معنا، ويجلسون ناحية، فقلتُ لرجل من رؤسائهم: إنكم لا تتعاطون العلم، فلم تختلفون معنا؟ قال: نسمع لغة الشافعي".

-قال الكرابيسي: "ما رأيتُ مجلساً قط أنبل من مجلس الشافعي، كان يحضره أهل الحديث، وأهل الفقه، وأهل الشعر، وكان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر فكلٌ يتكلم منه".

يختلف أهل العربية إلى مجلس العلم، ليسمعوا لغة الشافعي، فأيّ بحرٍ كان؟!



شهادة ابن حنبل

-وتأتينا شهادة عظيمة من مرجع في التاريخ الإسلامي، وهو الإمام الجليل أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، وهو تلميذ للشافعي، وصفيٌّ وحبيب له، يصف علم أستاذه الشافعي، فيقول: "الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة واختلاف الناس، والمعاني والفقه". (والفيلسوف هو الأستاذ المتميز).

-وقال أيضاً: "كان الشافعي من أفصح الناس".

لم يقتصر علم الشافعي على فنٍ واحد، بل كان عالماً في اللغة، واختلاف الناس، والمعاني، والفقه.

الإمام أحمد بن حنبل رحمه لله تعالى تلميذ الشافعي

كـأنـهـا سكّـر

-يقول يونس بن عبد الأعلى: "كان الشافعي إذا أخذ في العربية قلتُ:هو بهذا أعلم، فإذا تكلم في الشعر وإنشاده، قلتُ: هو بهذا أعلم، فإذا تكلم في الفقه، قلتُ: هو بهذا أعلم".

-ويقول الوليد بن أبي الجارود: "ما رأيتُ أحداً إلا وكتبه أكبر من مشاهدته إلا الشافعي، فإن لسانه أكبر من كتبه".

-قال يونس بن عبد الأعلى: "كانت ألفاظ الشافعي كأنها سكر".

لم يبقَ أحد ممن رأى الشافعي وسمعه إلا وشهد له بالفضل والسبق في اللغة والفصاحة، وحسن التأليف والبيان، وتنوع القدرات والعلوم.

كيف أصبحت؟

-ومن لطائفه: أنه مرض في أحد الأيام، فدخل عليه خادمه الربيع بن سليمان، فسأله: كيف أصبحت؟
فقال: أصبحتُ ضعيفاً.
فقال الربيع: قوّى اللهُ ضعفك.
فتبسم الشافعي وقال: إن قوّى ضعفي عليّ قتلني، ولكن قل: قوّاك الله على ضعفك.

4 الشعر الأخلاقي

الشعر موهبة أولاً، واكتساب ثانياً، فإذا اجتمعا في إنسان كان منهما الشاعر المجيد، ولا شك أن الشافعي رحمه الله التقت فيه الموهبة بالاكتساب، ولكنه بسبب تكوينه العلمي حرص أن يكون شعره من النهج الأخلاقي والنهج الثقافي، فركّز على الأخلاق والإيمان والعلاقات الاجتماعية الراقية، لذلك نجد: أن شعره ليس كشعر باقي الشعراء، فالشاعر غالباً يلجأ إلى المبالغة لشدّ النفوس (وكما قالوا: أعذب الشعر أكذبه).

أما شعر الشافعي فلم تكن فيه هذه المبالغات، بل كان أقرب إلى الشعر المباشر لحرصه على أن يكون لشعره قيمة إيمانية وأخلاقية؛ لينفع به، ويرفض أن يُعد من الشعراء، ويعتبر شعره خدمة للعلم، لذلك كانوا يقولون عن الشافعي: لولا هذا المنهج لكان من أشعر الناس.

ويقول هو عن نفسه:

ولولا أن الشعر بالعظماء يزري   لكنتُ اليومَ أشعرَ من لبيد



ويدل على هذا قدرته على تشكيل الشعر والتفنن بالكلام، لكن ما كان يتوسع في هذا.

يقول:

عندي يواقيتُ القريض ودرُّه

وعليَّ إكليلُ الكلامِ وتاجهُ

التكوين العلمي للشافعي، والتوجه إلى الفقه والقضايا الإيمانية، جعله يركز في شعره على الأخلاق، والعلاقات الاجتماعية الراقية، دون بقية المواضيع التي يتناولها الشعراء في شعرهم.

الإمام الشافعي يقرض الشعر أمام طلابه

الفصل الرابع

الشاعر الموهوب




1. العلم



2. فن بناء العلاقات



3. قصيدته المشهورة: دع الأيام



4. القصائد الإيمانية



نقف مع هذا الشعر لما ينبع منه من حِكَم عظيمة لا يمكن الاستغناء عنها، يعكس فيها تجربته في الحياة، ويعكس فيها الحِكَم التي تعلمها.



1 العلـــم

الشباب زمن التعلم

من أهم هذه الحكم ما يعلمه لتلاميذه وطلاب العلم من الصبر في طلب العلم، فيقول:

تصبَّر على مُرِّ الجفا من معلم ... فـإن رسـوبَ الـعـلـم فـي نَـفَـراتـه

ومَـنْ لم يَـذُقْ ذُلَّ التعلُّم ساعةً ... تجـرَّع ذُلَّ الجـهـل طـول حياته

ومَـنْ فاته التعليمُ وقتَ شبابهِ ... فـكـبِّـر عـلـيـه أربـعـاً لـوفـاتـه

حياة الفتى -والله- بالعلم والتقى ... إذا لـم يكونا لا اعـتـبـار لـذاتـه

يلخص لنا الشافعي أن النجاح في طلب العلم لا يكون إلا بالصبر على جفاء المعلم، وأن يكون التعلم وقت الشباب، وأن يصاحبه العلم والتقوى، وإلا فلا فائدة منه.

نَيـلُ العلـم

لذلك كان حريصاً على طلب العلم، وعرف شروطه، وعلَّم جيله، بل علَّم الأجيال هذه الشروط، ولخّصها في بيتين، فقال:

أخي لن تنال العلم إلا بستةٍ ... سأتيك عنها مُخبراً ببيان

ذكاءٌ، وحرصٌ واصطبارٌ، وبُلغةٌ ... وصحبةُ أستاذٍ، وطول زمان

يعلمنا الشافعي أن من شروط طلب العلم أن يكون التلميذ مصاحباً لأستاذ يتلقى منه العلم، مع الحرص والتصبر والفهم.

انقلاب العلم نقمة

ويشير أيضاً إلى قضية مهمة جداً، أن هذا العلم لا بدّ أن يكون مصحوباً بتقوى الله عز وجل، وأخلاق كريمة، وسلوك حسن سوي، فيقول:

إذا لم يَزد علمُ الفتى قلبَه هدى ... وسيرَتهُ عَدْلاً وأخلاقهُ حسنا

فبشِّره أن اللـهَ أولاهُ نقمةً ... يُساء بها مثل الذي عَبَدَ الوثنا

إذا لم تصبح سيرة طالب العلم مثل المسك تنبئ عما يحمله في قلبه من علم، فإن علمه ينقلب نقمة عليه.



مجلس العلم والأدب والناس تنظر إلى الإمام الشافعي وتحرص على حفظ كل ما يقوله

صاحب العلم

وكان الإمام الشافعي مُحباً للعلم، حريصاً على طلبه، فجلس كل حياته يطلب العلم ويشجع الناس على العلم، فيقول:

رأيتُ العلمَ صاحبُه كريمٌ ... ولو ولدتْه آباءٌ لئامُ

وليس يزال يرفعه إلى أن ... يعظِّم أمرَه القومُ الكرامُ

وهم تَبَعٌ له في كلِّ حالٍ ... كراعي الضأنِ تتبعهُ السوامُ

فلولا العلمُ ما سعدتْ رجالٌ ... ولا عُرف الحلالُ والحرامُ

العلم يرفع بيوتاً لا عماد لها، والجهل يهدم بيت العز والكرم.

سوء الحفظ

وكان يبحث عن مثل هذا الصديق، فوجد ما يريد في وكيع بن الجراح، فكان دائماً يستشيره، وكان وكيع ينصحه، والإمام الشافعي شديد الحفظ حتى كأنه آلة تصوير، لا يرى شيئاً إلا يحفظه، ومع ذلك كان يشتكي من سوء الحفظ، فيرشده وكيع إلى الدواء، يقول:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدني إلى تركِ المعاصي

وقال اعلم بأن العلمَ فضلٌ ... وفضلُ الله لا يؤتاهُ عاص

وقال اعلم بأن العلمَ نورٌ ... ونور الله لا يؤتى لعاص

إذاً من يريد العلم فلا بدَّ أن يترك المعاصي حتى ينور الله قلبه.



الإمام وكيع بن الجراح صديق الإمام الشافعي

وكان الشافعي يكره اللهو وإضاعة الوقت، مرّ على قومٍ يلعبون بالنرد، فقال: إني لأبغض الرجلَ يكون مشغولاً في أمر لا ينفعه في دينه، ولا ينفعه في دنياه.

العيب فينا

ويعيـب على الذيـن يركنون إلى التواكل والاستسـلام، وينسبون النقص والعيب إلى الزمان، فيقول:

نعيبُ زمانَنا والعيبُ فينا ... وما لزماننا عيبٌ سوانا

ونهجو ذا الزمان بغير جرم ... ولو نطق الزمانُ إذن هجانا

إنها كلمات تستحق أن تكتب بماء الذهب، ينبهنا إلى ما ندعيه من جَور الزمان، وإلقاء اللوم على الأيام، ولو نطقا لعلمنا حقيقة أننا السبب في عيوب الزمان.

الإمام ينكر على الناس انشغالهم بما لا فائدة فيه ولا نفع

بحر العلم عميق



وينصحنا أيضاً بالتركيز على نوع من العلوم، لا مانع أن يكون عندنا ثقافة، لكن التركيز الأساسي على نوع واحد من العلوم، فيقول:

لن يبلغَ العلمَ جميعاً أَحَدٌ … لا ولو حاوله ألفَ سَنه

إنما العلمُ عميقٌ بحرُه … فخذوا من كل شيءٍ أحسنه

طلب العلم فريضة، ولا بدَّ له من شروط، وقد لخصها الإمام الشافعي، وبيّنها لتلاميذه، ولمن يريد طلب العلم، وبيّن لنا أن بحر العلم عميق، ولا يخوضه إلا الغواص الماهر.

العلم

قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل، يحمل حزمة حطب، وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري.

وعن المزني قال: سمعت الشافعي يقول: من لا يحب العلم فلا خير فيه، ولا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة.

وعن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: زينة العلماء التقوى، وحِلْيَتُهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس.

وقال: سمعت الشافعي يقول: لا يَجْمُل العلم ولا يحسن إلا بثلاث خلال: تقوى الله وإصابة السُّنَّة، والخشية.

جمال العلم، التقوى والخشية، وهي زينة العلماء، ومن لا يحب العلم لا خير فيه، ويجب ألا يكون بيننا وبينه صداقة ولا معرفة.

العلم ما نفع

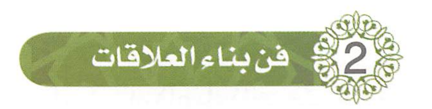
قال أبو بكر الخلّال: سمعت الشافعي يقول: ليس العلمُ ما حُفِظ، العلمُ ما نفع.

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: المراء في العلم يقسّي القلب، ويورث الضغائن.

وقال: سمعت الشافعي يقول: إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء الله عز وجل، فما لله ولي.

وعن المزني قال: سمعت الشافعي يقول: العلم مروءة من لا مروءة له.

الفقهاء العاملون أولياء الله، والعلم النافع مروءة من لا مروءة له، إذا لم يكن فيه مراء.



2 فن بناء العلاقات

تحويل الخصم إلى صاحب

كان الإمام الشافعي بسبب كثرة الجدل والنقاش الذي في زمانه قد تعلّم المناظرة والجدل بالحسنى، وكان في مناظراته هادئاً، مؤدباً واسع الصدر، يكسب النفوس ويحوّل الخصم إلى صاحب بحكمته وأدبه، ويعطينا بأبيات شعرية آداب المناقشات والمناظرات فيقول:

إذا ما كنتَ ذا علمٍ وفضلٍ	بما اختلف الأوائلُ والأواخرْ
فناظِرْ مَنْ تناظِرُ في سكونٍ	حليماً لا تلجُّ ولا تكابرْ
يفيدكَ ما استفادَ بلا امتنانٍ	من النكتِ اللطيفةِ والنوادرْ
وإياكَ اللجوجَ ومن يراني	بأني قد غلبت ومن يفاخِرْ
فإن السرَّ في جنباتِ هذا	قمينٌ بالتقاطعِ والتدابرْ

مع كثرة مناظرات الإمام الشافعي، وكثرة المجادلين له، إلا أنه لم يُعرف أنه رفع صوته في مناظرة قط، بل كان هادئاً واسع الصدر، ويعلمنا آداب المناقشة والمناظرة في أبيات جميلة



الشافعي يناضر أقرانه بهدوء وثبات واقتدار



العلاقات الصحيحة

لقد ذاق الشافعي طعوم الحياة، وخبر ناسها، وحرص أن يلتمس صديقاً يواسيه، فأعياه ذلك حتى قال:

صديقٌ ليس ينفعُ يومَ بأسٍ ... قريبٌ من عدوٍ في القياس

ولا يُرجى الصديقُ بكلِّ عصرٍ ... ولا الإخـوانُ إلا للتآسي

خبرتُ الناسَ ملتمساً بجهدي ... أخا ثقةٍ فأكداهُ التماسي

تنكرتِ البلادُ عليَّ حتى ... كأنَّ أناسها ليسوا بناسِ

التماس الصديق الصدوق ليس أمراً سهلاً، فربما تعيش حياتك تبحث عنه فقلما تجده.

مرض صديقٌ للشافعي فزاره، فتألّم لألمه، ولما رجع قال بيتين قصيرين لكنهما جميلان:

مَرِضَ الحبيبُ فعدتُهُ ... فمرضْتُ من حذري عليه

وأتى الحبيبُ يعودُني ... فبرئْتُ من نظري إليه

الأخ الصادق

ثم ينبهنا إلى الصاحب الذي يجب أن نتمسك به، فيقول:

أُحبُّ من الإخوانِ كلَّ مواتِ ... وكلَّ غضيض الطرفِ عن عثراتي

يوافقني في كلِّ أمرٍ أريدُهُ ... ويحفظني حياً وبعد وفاتي

فَمَنْ لي بهذا؟ ليت أني أصبته ... فقاسمته مالي مع الحسنات

تصفحتُ إخواني فكان أقلّهم ... على كثرة الإخوان أهلَ ثقاتِ

سـرّ المعاملـة

ومن شعر الشافعي العظيم ما يعلمنا به كيف نعيش بين الناس بحياة سعيدة، ذات علاقات صحيحة، فيقول:

صُنِ النفسَ واحملها على ما يزينها ... تعشْ سالماً والقولُ فيكَ جميلُ

ولا تُولِيَنَّ الناس إلا تجملاً ... نَبا بِكَ دهرٌ أو جفاكَ خليلُ

وإن ضاق رزقُ اليومِ فاصبرْ إلى غدٍ ... عسى نكباتُ الدهرِ عنك تزولُ

ولا خير في وُدِّ امرئٍ متلونٍ ... إذا الريحُ مالَتْ مالَ حيث تميلُ

وما أكثر الإخوان حين تعدُّهم ... ولكنهم في النائباتِ قليلُ

معاملة الناس تحتاج إلى مداراة، وصبر كبير، ففي الرخاء تجد الإخوان كثيرين، ولكنهم وقت المصائب قليل.

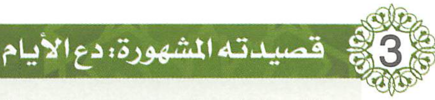
وحدك أفضل

فإذا لم تجد ذلك الصاحب فالجلوس وحدك أفضل، يقول:

إذا لم أجدْ خِلّاً تقياً فوحدتي ... ألذُّ وأشهى من غويٍّ أعاشِرُه

وأجلسُ وحدي للسفاهةِ آمناً ... أَقَرَّ لعيني من جليسٍ أحاذره

أفضل الإخوان التقي الناصح، من يكون مع أخيه في النائبات ويحفظه في حياته وبعد موته، فإن لم يكن فأن يعيش الإنسان وحيداً أفضل.



3 قصيدته المشهورة: دع الأيام

ولا بد لكل متحدثٍ عن بلاغة الإمام الشافعي وشعره من ذكر تلك القصيدة العظيمة التي امتلأت حِكماً، وصارت مرجعاً، بل زينة تزين بها البيوت والصدور، يذكرنا فيها بقضاء الله وقدره، بحكمة عظيمة ولغة جزِلة، يقول فيها:

دع الأيام تفعلْ ما تشاء	وطِبْ نفساً إذا حكم القضاءُ
ولا تجزع لحادثة الليالي	فما لحوادثِ الدنيا بقاءُ
وكنْ رجلاً على الأهوالِ جَلْداً	وشيمتك السماحةُ والوفاءُ
وإن كَثُرَتْ عيوبُكَ في البرايا	وسرّكَ أن يكون لها غطاءُ
تسترْ بالسخاء فكلُّ عيبٍ	يغطيه كما قيلَ السخاءُ
ولا ترِ الأعادي قطُّ ذُلاً	فإن شماتة الأعدا بلاءُ
ولا ترجو السماحة من بخيلٍ	فما في النار للظمآن ماءُ
ورزقُك ليس يُنقِصُهُ التأني	وليس يزيدُ في الرزقِ العناءُ
ولا حزنٌ يدومُ ولا سرورٌ	ولا بؤسٌ عليك ولا رخاءُ
إذا ما كنتَ ذا قلبٍ قنوعٍ	فأنتَ ومَالِكُ الدنيا سواءُ
ومن نزلتْ بساحته المنايا	فلا أرضٌ تقيه ولا سماءُ
وأرضُ الله واسعةٌ ولكن	إذا نزل القضا ضاقَ الفضاءُ
دعِ الأيام تغدرُ كلَّ حينٍ	فما يُغني عن الموتِ الدواءُ

يذكّرنا الشافعي في هذه القصيدة بقضاء الله وقدره، وتحمل في طياتها حكماً عظيمة، لو تمثلناها في حياتنا لانقلبت سعادة ورضا، وكنا كمن ملك الدنيا بيده.



4 القصائد الإيمانية

سهام الليل

أتـهـزأُ بـالـدعـاء وتـزدريـه ... ومـا تـدري بمـا صنع الدعاءُ

سهامُ الليل لا تُخطي ولكن ... لـهـا أمـدٌ ولـلأمـدِ انـقـضـاءُ

الدعاء سهم لا يخطئ، ولو جربنا هذا السهم لرأينا عجباً.

الفرج من الضيق

ولَـرُبَّ نـازلـةٍ يـضيقُ لـهـا الفتى ... ذَرْعـاً، وعـنْـدَ الله مِنْها المَخْرَجُ

ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُها ... فُـرِجَـتْ، وكُـنْـتُ أظنُّـهـا لا تُـفْـرَجُ

لا تيأس من لطف الله

إنْ كُنْتَ تَغْدُو في الذُّنوبِ جَليدا ... وتَـخـافُ فـي يَـومِ المَعَـادِ وَعِـيْـدا

فَلَقَدْ أتـاكَ مِـنَ المُهَيْمِنِ عَفْوُهُ ... وأَفَـاضَ مِـنْ نِعَمٍ عَلَيكَ مَزِيدا

لا تَيْأَسَنْ مِنْ لُطفِ رَبِّكَ في الحشَا ... فـي بَطْـنِ أُمِّـكَ مُضْغَةً ووَلِـيْـدا

لَوْ شَاءَ أنْ تَصْلَى جهنَّمَ خَالِدَا ... مَـا كـانَ أَلْـهَـمَ قَلْبَكَ التَّوْحِيْدا



التسليم لإرادة الله

إذا أَصْبَحْتُ عِنْدي قُوتُ يَوْمي | فَخَلِّ الْهَمَّ عنِّي يا سَعيْدُ
ولا تخطرْ همومَ غدٍ ببَابي | فإنَّ غداً له رِزْقٌ جَديْدُ
أُسَلِّمُ إنْ أرادَ اللهُ أمراً | فأَتْرُكُ ما أُريدُ لِما يُريدُ

تقوى الله.. والأماني

يُريدُ المَرْءُ أَنْ يُعْطَى مُناه | ويَأْبَى اللهُ إلا مَا أَرَادَ
يَقُولُ المرءُ فائدَتي وَمَالي | وتَقْوَى اللهِ أَفْضَلُ ما اسْتَفَادَ

ذكر الله

قَلْبي بِرَحْمَتِكَ اللّهُمَّ ذُو أُنْسِ | في السِّرِّ والجَهْرِ والإِصْباحِ والغَلَسِ
ما تَقَلَّبْتُ مِنْ نَوْمي وفي سِنَتي | إلا وَذِكْرُك بَيْنَ النَّفْسِ والنَّفَسِ
لَقَدْ مَنَنْتَ على قَلْبي بِمَعْرِفَةٍ | بِأَنَّكَ اللهُ ذو الآلاءِ والقُدسِ
وقَدْ أَتَيْتُ ذُنُوباً أَنْتَ تَعْلَمها | وَلَمْ تَكُنْ فاضِحي فِيْها بِفِعْلٍ مُسي
فَامْنُنْ عَلَيَّ بِذِكْرِ الصَّالِحِيْنَ وَلا | تَجْعَلْ عَلَيَّ إذاً في الدِّيْنِ مِنْ لَبَسِ
وَكُنْ مَعي طُوْلَ دُنْيايَ وَآخِرَتي | وَيَوْمَ حَشْري بِما أَنْزَلْتَ في عَبَسِ

طريق النجاة

يَا وَاْعِظَ النَّاسِ عَمَّا أَنْتَ فَاْعِلُهُ ... يَا مَنْ يُعَدُّ عَلَيْهِ العُمْرُ بَالنَّفَسِ

احْفَظْ لِشَيْبِكَ مِنْ عَيْبٍ يُدَنِّسُهُ ... إِنَّ البَيَاضَ قَلِيْلُ الحَمْلِ لِلدَّنَسِ

كَحَامِلٍ لِثِيَابِ النَّاسِ يَغْسِلُهَا ... وَثَوْبُهُ غَارِقٌ فِي الرِّجْسِ وَالنَّجَسِ

تَبْغِيْ النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ طَرِيْقَتَهَا ... إِنَّ السَّفِيْنَةَ لا تَجْرِيْ عَلى اليَبَسِ

رُكُوْبُكَ النَّعْشَ يُنْسِيْكَ الرُّكُوبَ على ... مَا كُنْتَ تَرْكَبُ مِنْ بَغْلٍ وَمِنْ فَرَسِ

يَوْمَ القِيَامَةِ لا مَالٌ وَلا وَلَدٌ ... وَضَمَّةُ القَبْرِ تُنْسِي لَيْلَةَ العُرُسِ

التذلل إلى الله سبحانه

بموقفِ ذُلّي دُوْنَ عِزَّتِكَ العُظْمَى ... بِمَخْفِيِّ سِرٍّ لا أُحِيْطُ بِهِ عِلْمَا

بِإِطْرَاقِ رَأْسِي، بِاعْتِرَافِيْ بِذِلَّتِي ... بِمَدِّ يَدِي أَسْتَمْطِرُ الجُوْدَ والرُّحْمَى

بِأَسْمَائِكَ الحُسْنَى التي بَعْضُ وَصْفِهَا ... لِعِزَّتِهَا يَسْتَغْرِقُ النَّثْرَ والنَّظْمَا

بِعَهْدٍ قَدِيْمٍ مِنْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ ... بِمَنْ كَانَ مَجْهولاً فَعُرِفَ بالأَسْمَا

أَذِقْنَا شَرَابَ الأُنْسِ يَا مَنْ إذا سَقَى ... مُحِبّاً شَرَاباً لا يُضَامُ وَلا يَظْمَا

دع الهموم

سَهِرَتْ أَعْيُنٌ، وَنَامَتْ عُيونُ ... فِي أُمُورٍ تَكُونُ أو لا تَكُونُ

فَادْرَأِ الهمَّ مَا اسْتَطَعْتَ عَنِ النَّفْـ ... ـسِ فحِمْلانُكَ الهُمُومَ جُنُونُ

إِنَّ رَبّاً كَفَاكَ بِالأَمْسِ مَا كا ... نَ سَيَكْفِيكَ فِي غَدٍ مَا يَكونُ





الفصل الخامس

الحكيم المجرِّب

1. أدب العالم والمتعلم
2. أدب الصحبة والصداقة
3. فن إكمال الذات
4. فن بناء العلاقات
5. فهم الدِّين
6. الأخلاق العالية



1 أدب العلم والمتعلم

ولم يكن يعتقد أنه أحاط بسنة رسول الله ﷺ علماً، بل كان يحث أصحابه على طلب الحديث، وإن رأوا حديثاً صحيحاً يخالف ما يقرره، فليرفضوا رأيه، وليأخذوا الحديث.

جاء في معجم ياقوت بسند إلى الربيع بن سليمان أنه قال: "سمعت الشافعي وقد سأله رجل عن مسألة، فقال الشافعي: يروى عن النبي ﷺ أنه قال: كذا وكذا.

فقال له: يا أبا عبد الله، أتقول بهذا؟ (أي هل تفتي حسب ما ورد في هذا الحديث؟).

فارتعد الشافعي واصفر لونه، وحال وتغير، وقال: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني، إذا رويتَ عن رسول الله ﷺ ولم أقل به؟ نعم على الرأس والعين".

ويقول الربيع بن سليمان: "سمعت الشافعي يقول: ما من أحد إلا وتذهب عنه سنة لرسول الله ﷺ، وتعزب، فمهما قلتُ من قول، أو أصَّلْتُ من أصل، فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلتُ، فالقول ما قاله رسول الله ﷺ، وهو قولي"، وجعل يردد هذا الكلام.

إنها دعوة للاعتدال وعدم التعصب لقول أحد، فكل إنسان يمكن أن يخطئ ويصيب، لذلك فالمرجع هو كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

نكتة لطيفة

من نكته اللطيفة: أنه سمع حديثاً يرويه أبو العالية الرياحي يقول فيه: على الضاحك الوضوء (أي يجب على من ضحك أن يتوضأ)، فيُسأل الشافعي عن هذا الحديث، فيقول: حديث الرياحي، رياح (لا قيمة له).

ويسمع حديثاً آخر عن حرام بن عثمان -وهي أحاديث موضوعة- فيقول الشافعي: حديث حرام كاسمه: حرام.

2 أدب الصحبة والصداقة

وقال يونس بن عبد الأعلى: قال لي الشافعي: عاشر كرام الناس تعش كريماً، ولا تعاشر اللئام فتنسب إلى اللؤم.

وقال المزني: سمعت الشافعي يقول: أظلم الظالمين لنفسه: مَنْ تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودة من لا ينفعه، وقَبِل مدح من لا يعرفه.

وعن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: صحبة من لا يخاف العار؛ عارٌ يوم القيامة.

وعنه أيضاً قال: سمعت الشافعي يقول: ليس بأخيك من احتجت إلى مُداراته.

أي حكمة، وأي قانون اجتماعي هذا الذي يعطينا إياه الشافعي! لا تصحب من لا يخاف العار، وعاشر الكرام، ولا تظلم نفسك بالتواضع لمن لا يكرمك، وإذا احتجت إلى مداراة أحد فهو ليس بأخ.

صدق الأخوة

وقال أيضاً: سمعت الشافعي يقول: من صَدَق في أخوة أخيه قَبِل عِلَله، وسدّ خَلَله، وعفا عن زَلَله.

وقال الشافعي: ليس سُرورٌ يعدل صحبة الإخوان، ولا غَمَّ يعدل فراقهم.

وعن المزني قال: سمعت الشافعي يقول: مَن وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

قال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام.

قال: وسمعت الشافعي يقول: أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره، وأكثر الناس فضلاً من لا يرى فضله.

الأخ الصادق من يعفو عن خطئك، ويقبل عذرك، وينصحك سراً، وهو الذي تسرُّك صحبته، وتغتمُّ لفراقه.

التمسك بالصديق

ومن نصائحه العظيمة؛ قوله ليونس بن عبد الأعلى: يا يونس، إذا كان لك صديق فشدَّ يديك به، فإن اتخاذ الصديق صعب، وفراقه سهل.

وقوله كذلك: من نمَّ لك نمَّ بك، ومن نقل إليك نقل عنك، ومن إذا أرضيته فقال ما ليس فيك، كذلك إذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك.



3 فن إكمال الذات

كمال الرجل

ويقول الشافعي: من تعلّم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبُل قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رقّ طبعه، ومن نظر في الحساب جَزُل رأيه، ومن لم يَصُن نفسه؛ لم ينفعه علمه.

قال البويطي: سمعت الشافعي يقول: لا يكمل الرجل في الدنيا إلا بأربع: بالديانة، والأمانة، والصيانة، والرّزانة.

وقال الشافعي: أشد الأعمال ثلاثة: الجود في قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يُرجى ويُخاف.

خَبَر الإمام الشافعي الحياة، وذاق ألوانها، وتعرّف طبائع الناس وأخلاقهم، وكان نافذ البصيرة، مرهف الحس، فتكوّنت لديه حصيلة ضخمة من الحِكَم والتجارب، زودنا إياها، وعرّفنا بعضها.



4 فن بناء العلاقات

الإمام الشافعي عاقل ذكي، مرهف الحس، نافذ البصيرة، خبرَ الحياة، وذاق ألوانها، عاش يتيماً فقيراً، ثم سطع نجمه، وأصبح كالشمس للدنيا، رحل إلى بلاد إسلامية مختلفة، وعرف أصنافاً من البشر، فتكونت لديه معرفة واسعة، تفجّرت منها حِكَم كثيرة، من ذلك: عن الربيع قال: قال الشافعي: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها.

قال المزني: سمعت الشافعي يقول: ليس أحدٌ إلا له مُحِبٌ ومبغض، فإذ لا بد لك من ذلك؛ فليكن المرجع أهل طاعة الله تعالى.

وقال يونس بن عبد الأعلى: قال الشافعي: يا أبا موسى، لو جهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل إليه، فإذا كان كذلك، فأخلصْ عملك ونيتك لله عز وجل.

انظر إلى هذه الحِكَم، إنها كالدرر، يعلمنا أن لا نتكلم بالكلمة إلا في مواضعها، وألا نهتم كثيراً بما يقوله الناس، وأن نجعل الصالحين مَثَلنا وقدوتنا.

وقال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى: يا يونس، الانقباض عن الناس مَكْسَبة للعداوة، والانبساط إليهم مَجْلَبَة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

كما يطلب من تلاميذه ألا ينشغلوا بإرضاء الناس، يقول يونس: قال لي الشافعي: رضا الناس غاية لا تُدرك، وليس إلى السلامة منهم سبيل، فعليك بما ينفعك فالزمه.

ويقول أيضاً: ما أكرمت أحداً فوق مقداره إلا اتضع من قدري عنده بمقدار ما أكرمته به.

وقال: لا وفاء لعبد، ولا شكر للئيم، ولا صنيعة عند نذل.



يعلمنا الشافعي كيفية التعامل مع الناس، بأن نكون معهم بين المنقبض والمنبسط، وألا ننشغل بإرضائهم وألا نكرم أحداً فوق مقداره.



الزواج من غير الأقارب

ويقول الشافعي رحمه الله في حكمة اجتماعية ربما غفل عنها كثير من الناس: أيّما قوم لم تخرج نساؤهم إلى رجال غيرهم، ورجالهم إلى نساء غيرهم؛ إلا خرج أولادهم حَمْقى.

الرضى

ويقول الربيع: سمعت الشافعي يقول: مَن استُرضي فلم يرضَ فهو شيطان.

انظروا إلى هذه الحكمة التي قلَّ من ينتبه لها، القوم الذين لا يتزوج رجالهم من نساء غيرهم، ولا يزوجون نساءهم لرجال غيرهم، يخرج أولادهم حمقى، يا لها من حكمة، ويا له من إمام!



5 فهم الدين

ذم التواكل

ويقول الشافعي في ذم من دخل في الصوفية، وقعد عن الكسب، وألقى مؤونته على المسلمين، ولم يرعَ حقوقهم، ولم يشتغل بعلم ولا عبادة؛ يقول: لو أن رجلاً تصوّف من أول النهار لم يأتِ عليه الظهر إلا وجدته أحمق.

ويقول: ما رأيتُ صوفياً عاقلاً قط إلا (مسلم الخوّاص).

وقال: لا يكون الصوفي صوفياً حتى يكون فيه أربع خصال: كَسول، أَكُول، نؤوم، كثير الفضول.

وقال محمد بن محمد بن إدريس الشافعي: سمعت أبي يقول: صحبتُ الصوفية عشر سنين ما استفدت منهم إلا هذين الحرفين: الوقت سيف، ومن العصمة أن لا تقدر.



6 الأخلاق العالية

شبه مفقود

قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: المروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك.

وعاتب ابنه أبا عثمان فكان فيما قاله له: يا بني، والله لو علمت أن الماء البارد يثلم من مروءتي شيئاً ما شربته إلا حاراً، وروي بزيادة: ولو كنت اليوم ممن يقول الشعر لرثيت المروءة.

وقال الشافعي أيضاً: المروءة عفة الجوارح عما لا يعنيها.

وعن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: أصحاب المروءات في جهد.

وقال الشافعي: الشفاعات زكاة المروءات.

المروءة، ربما لم يعد لها ذكر في أيامنا، لكن الشافعي كان شديد الحرص على مروءته، حتى لو علم أن الماء البارد يثلم مروءته لشربه حاراً.

لا تغضب

مع كل هذه الصفات العظيمة، والقدرات النادرة، ما كان الشافعي يغضب في جدال، ولا يستطيل بحدة لسان في نزال؛ لأنه يبغي الحق من جدله، ولا يريد به علواً، ولقد بلغ من زهده في جاه العلم، وإخلاصه لطلب الحق وفنائه فيه؛ أنه كان يتمنى أن ينتفع الناس بعلمه من غير أن يُنسب إليه، فقد جاء في تاريخ ابن كثير أنه كان يقول: "وددتُ أن الناس تعلموا هذا العلم، ولا يُنسب إليّ شيء منه، فأوجر عليه ولا تحمدوني".

لماذا يغضب من يثق بما عنده، ويكون هدفه الحق؟ إن الشافعي كان لا يغضب في جدال، ولا يريد به علواً، ويتمنى أن ينتفع الناس بعلمه دون أن يُنسب إليه شيء منه.

مروءته تمنعه

بهذه الأخلاق السامية، والأدب الرفيع وصل الشافعي إلى أسمى ما يصل إليه المخلص الصدوق من قوة النفس، وذكاء القلب، ونُبل الغرض، والترفع عن الدنايا، والتسامي عما لا يليق بالرجل الكامل، حتى قال يحيى بن معين في وصفه: "لو كان الكذب مباحاً لكانت مروءته تمنعه من أن يكذب".

رحم الله الإمام الشافعي، كان يقوم بما يجب استجابةً لضميره ووجدانه، لا لمجرد الأمر والنهي.

لقد آتى اللهُ الشافعيَ صفات ومواهب رفعته في دينه وخلقه، وجعلته في الذروة الأولى، فكان ذا حافظة واعية قوية، مع سرعة البديهة، وكان عميق الفكرة، قوي البيان، واضح التعبير، نافذ البصيرة، صافي النفس، مخلصاً في طلب الحق.

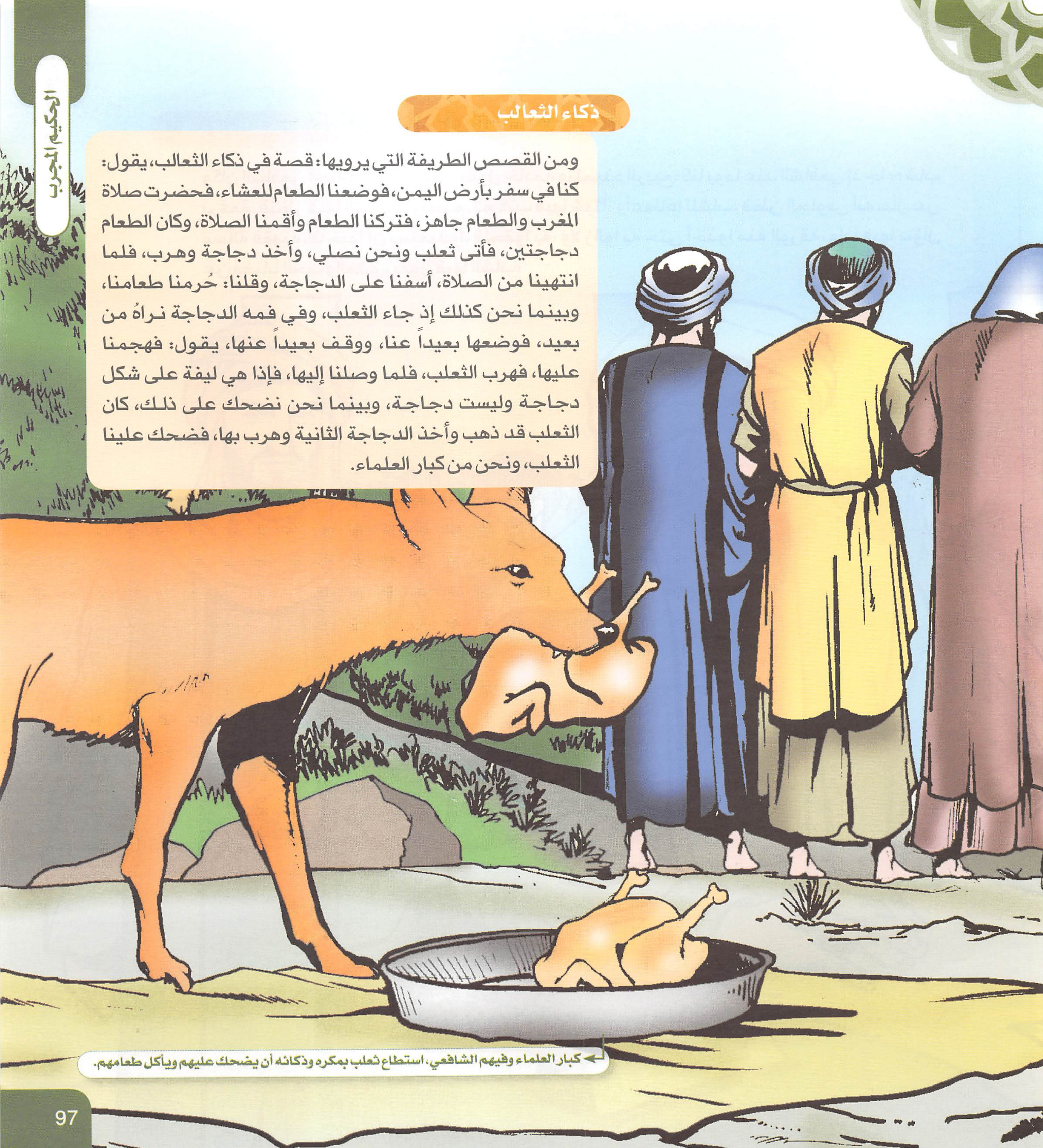
السماحة واللطف

الشافعي إمام عظيم من أئمة المسلمين، وعَلَم من أعلامهم، وقد اطّلعنا على مقدار علمه، ومستوى فهمه وذكائه، ولكن هذا العلم لا يتنافى مع السماحة واللُّطف والدعابة، بل على العكس يجب أن يكون العالم سمحاً لطيفاً، غير فظ ولا غليظ حتى لا ينفر الناس منه، ولقد كان النبي ﷺ وهو رسول العالم، يمزح، ولكنه لا يقول إلا صدقاً، وكذلك كان الشافعي صاحب دعابات ومُلَح، وكان فيه مَرَح لطيف.

سماحة العالم ولطفه، تجعله محبَباً للناس، يقبلون عليه، ويسمعون منه، وهكذا كان الشافعي مقرَّباً، محبوباً من تلاميذه، ومن الناس.

ذكاء الثعالب

ومن القصص الطريفة التي يرويها: قصة في ذكاء الثعالب، يقول: كنا في سفر بأرض اليمن، فوضعنا الطعام للعشاء، فحضرت صلاة المغرب والطعام جاهز، فتركنا الطعام وأقمنا الصلاة، وكان الطعام دجاجتين، فأتى ثعلب ونحن نصلي، وأخذ دجاجة وهرب، فلما انتهينا من الصلاة، أسفنا على الدجاجة، وقلنا: حُرمنا طعامنا، وبينما نحن كذلك إذ جاء الثعلب، وفي فمه الدجاجة نراهُ من بعيد، فوضعها بعيداً عنا، ووقف بعيداً عنها، يقول: فهجمنا عليها، فهرب الثعلب، فلما وصلنا إليها، فإذا هي ليفة على شكل دجاجة وليست دجاجة، وبينما نحن نضحك على ذلك، كان الثعلب قد ذهب وأخذ الدجاجة الثانية وهرب بها، فضحك علينا الثعلب، ونحن من كبار العلماء.



كبار العلماء وفيهم الشافعي، استطاع ثعلب بمكره وذكائه أن يضحك عليهم ويأكل طعامهم.

فتوى بالشعر

وكان الشافعي أحياناً يفتي بالشعر، يقول خادمه وتلميذه الربيع: كنا يوماً عند الشافعي إذ جاءه شاب برقعة، فنظر فيها الشافعي وتبسم، ثم كتب فيها شيئاً، وأعطاها للشاب، فظنّ الجلوس أنه سأل عن مسألة فقهية، فأحبوا أن يستفيدوا، فلحقوا به، ولا زالوا به حتى أخذوا منه الورقة، وإذا فيها سؤال عن قضايا الحب والعشق، يقول فيها الشاب:



شاب يسأل الشافعي على ورقة وهو يجيبه في قضايا العشق والغرام

سلِ المفتي المكيَّ: هل في تزاورٍ وضمةِ مشتاقِ الفؤادِ جُناحُ

وإذ بجواب الشافعي يقول:

معاذَ اللهِ أن يُذهبَ التقى تلاصقُ أكبادٍ بهنّ جراحُ

فتعجبوا من هذا الجواب، وسكتوا، وجاء الشاب مرة أخرى يسأل، يقول:

سلِ المفتي المكيَّ من آلِ هاشمٍ إذا اشتدَّ وَجْدٌ بامرئٍ كيفَ يصنعُ؟

فكتب الشافعي:

يُداوي هواهُ ثم يكتمُ حبَّه ويصبرُ في كلِّ الأمورِ ويخضعُ

ثم رجع مرة أخرى فقال:

فكيف يداوي والهوى قاتلُ الفتى وفي كلِّ يومٍ غُصَّةً يتجرَّعُ

فكتب الشافعي:

فإن هو لم يصبر على ما أصابهُ فليس له شيءٌ سوى الموتِ أنفعُ

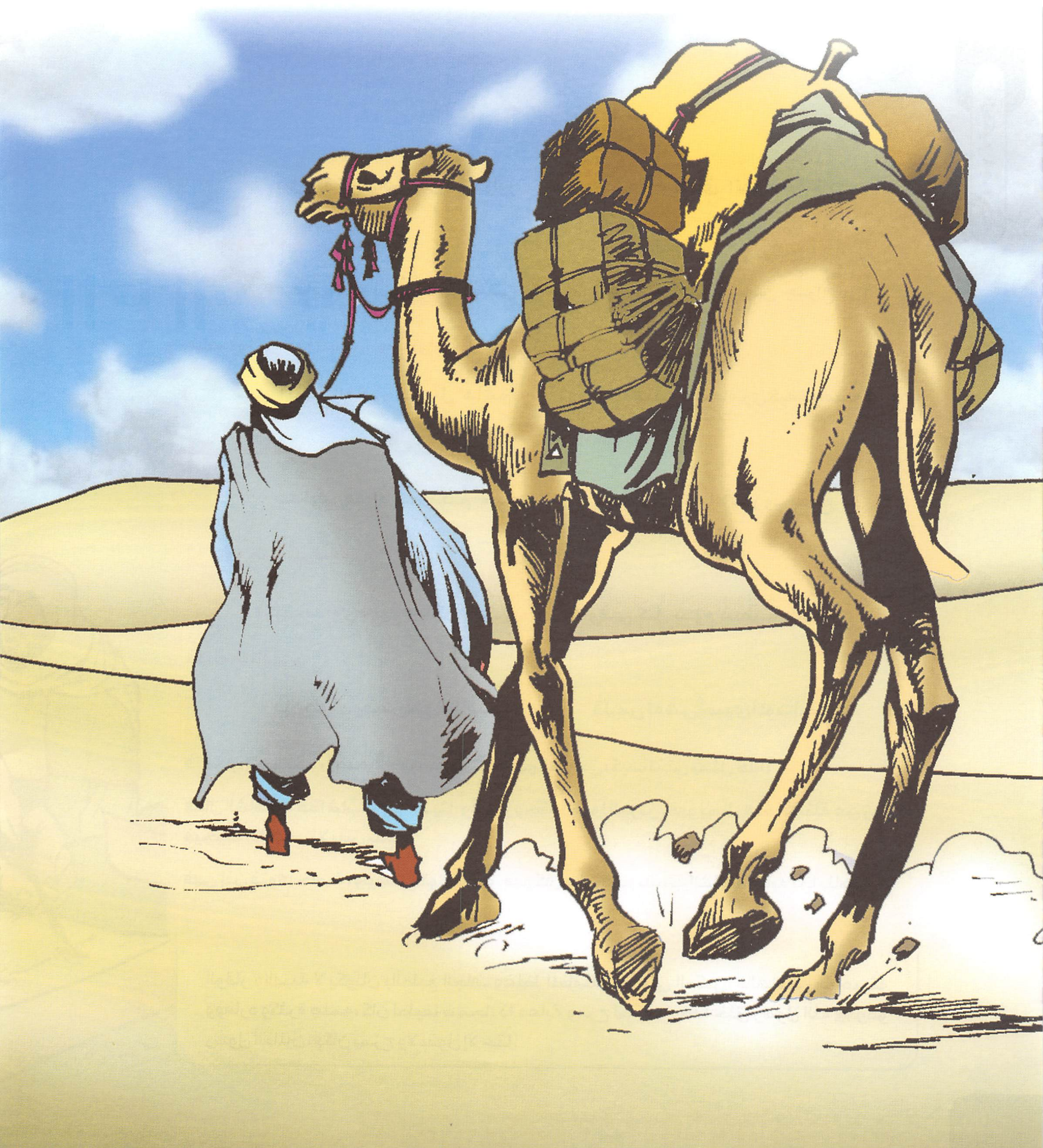
فتعجب تلاميذه من هذه الأجوبة، وسأل أحدهم الشافعيَ: كيف تفتي بمثل هذا؟

فقال الشافعي: هذا شابٌ تزوّج حديثاً، وأهل زوجته أخَّروا العرس، فهو يسأل هذه الأسئلة عن زوجته، فيجيبه الشافعي: لا بأس بذلك.

فهي إذن فتوى خاصة، وليست فتوى عامة، فهو كان على علم بقصة الشاب فأجابه بما يناسبه.



الوقار والهيبة لا يكونان بالطبع الجاف وغلظ المعاملة، بل على العكس، فالشافعي مع هيبته ووقاره وكثرة علمه، كان لطيفاً سمحاً، ذا دعابة ومرح لطيف، وهذا خُلق رسول الله ﷺ وهو رسول العالمين، فكان يمزح ولا يقول إلا حقاً.





الباب الثالث

الشهرة العالمية



الفصل الأول

عالم اليمن والعراق





1 إلى مكة

بقي الإمام الشافعي في المدينة حتى توفي الإمام مالك رحمه الله، وكان يؤوب بين الحين والآخر إلى مكة منشئه، وموطن أجداده، وفيها أمه العاقلة التي لا تنفك تنصح له، وتحسن توجيهه، وفيها شيوخه الذين يجلهم، ولا ينسى فضلهم عليه.

وقد عاش الشافعي فقيراً، فلما مات مالك رضي الله عنه، أراد الشافعي عملاً يعيش من رزقه، فعاد إلى مكة ولكنه لم يجد عملاً فيها، فسعى له بعض القرشيين عند والٍ على اليمن قدم مكة، أن يصحبه إلى اليمن، لعله يجد له عملاً، وتأهب للذهاب إلى اليمن.

لما جمع الشافعي ما عند شيوخ المدينة من علم، وأخذ فقه مالك وعلمه إلى أن توفي قرر العودة إلى منشئه، وكان فقيراً فبدأ يبحث عن مورد رزق يعيش منه.

2 إلـى اليمـن

يقول الشافعي في قصة ذهابه إلى اليمن: "قدم والٍ على اليمن -يعني إلى الحجاز- فكلمه بعض القرشيين في أن أصحبه، ولم يكن عند أمي ما تعطيني ما أتحمل به، فرهنت داراً فتحملت معه، فلما قدمنا عملتُ له على عمل (أي ولاني منصباً حكومياً)، فحُمِدْتُ فيه فزادني". (أي أتقنت عملي فزاد من مهماتي).

مَـرْكَبٌ صعـب

في هذا العمل بدت مواهب الشافعي وذكاؤه، فشاع ذكره بين الناس عادلاً ممتازاً، ثم تولى عملاً بنجران، فأقام العدل ونشر لواءه، والناس في نجران في ذلك الوقت كانوا يصانعون الولاة والقضاة ويتملقونهم، ليجدوا عندهم سبيلاً إلى نفوسهم، ولكنهم وجدوا في الشافعي عدلاً لا سبيل إلى الاستيلاء على نفسه بالمصانعة والملق.

وقد صوّر الشافعي ذلك، فقال: "وليتُ نجران، وبها بنو الحارث بن المدان، وموالي ثقيف، وكان الوالي إذا أتاهم صانعوه، فأرادوني على نحو ذلك، فلم يجدوا عندي".

وبذلك سدّ الشافعي باب المصانعة والمَلَق، فصار كله للعدل، ولكن العدل دائماً مركب صعب لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرجال، وهم يتعرضون لخشونة الزمان وأذاه، ودس الفاسدين المفسدين، وكذلك كان الشافعي.



الشافعي يؤدي مهام عمله بالعدل والصدق والإتقان الكامل

3 اتهـام خطيـر

يقول الشافعي: "ثم خرجت إلى اليمن، فارتفع لي بها الشأن، وكان بها والٍ تابع للخليفة هارون الرشيد، وكان هذا الوالي ظلوماً غشوماً، وكنتُ ربما آخذ على يديه، وأمنعه من الظلم، فكتب الوالي إلى الخليفة كتاباً يقول فيه: إن تسعة من العلوية تحركوا (أي هناك ملامح لبداية ثورة على يد تسعة من ذرية علي بن أبي طالب ﷺ)، وإني أخاف أن يخرجوا، وإن ها هنا رجلاً من ولد شافع المطلبي، لا أمر لي معه، ولا نهي، يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه". (أي يتهم الشافعي بأنه يحرك الثورة بكلامه فيشعلها أكثر من الذين يثورون بالسيوف).

وكان العباسيون يعدون خصومهم الأقوياء العلويين، لأنهم يدلون بمثل نسبهم، ولهم من رحم رسول الله ﷺ ما ليس لهم، ولذلك كانوا إذا رأوا دعوة علوية قضوا عليها وهي في مهدها، فجاء هذا الوالي الظالم إلى الحكام العباسيين من ناحية الضعف في نفوسهم، واتهم الشافعي بأنه مع العلوية، فأرسل الرشيد أن يحضر أولئك النفر التسعة من العلوية ومعهم الشافعي.



الوشاة المفسدون لا يطيب لهم عيش بدون الإفساد، ولكنهم لم يجدوا إلى نفس الشافعي العادل الذي سدّ باب المصانعة والملَق سبيلاً، فسعى به الوالي إلى الرشيد، بتهمة أنه مع العلوية فأمر الرشيد بإحضاره معهم إليه.



الشافعي يشرح لهارون الرشيد أمير المؤمنين بفصاحته وبلاغته وشاية أهل اليمن عليه

4 إلى العراق

وبسبب تلك الوشاية التي وشى بها الوالي؛ سيق الشافعي مكبلاً بالحديد إلى العراق، وتلك زيارته الأولى إليها، وكانت سنة 184هـ، وعمره نحو أربع وثلاثين سنة.

فلما مثل بين يدي الرشيد استطاع أن ينجو بفصاحته، وقوة حجته، وقدرته على البيان، فعندما سأله الرشيد عن التهمة، قال الشافعي مجيباً: "يا أمير المؤمنين، ما تقول في رجلين أحدهما يراني أخاه، والآخر يراني عبده، أيهما أحب إلي؟

قال هارون الرشيد: الذي يراك أخاه.

قال الشافعي: فأنت ذاك يا أمير المؤمنين، إنكم ولد عباس، وهم ولد علي، ونحن بنو المطلب، فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم، وهم يروننا عبيدهم". (أي أن نسبه أقرب إلى العباسيين منه إلى العلويين فما الذي سيدعوه إلى مناصرتهم ضد العباسيين؟).

وقال في ذلك:

تمنّى رجالٌ أن أموتَ ... وإن أمت فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحَدِ

وما موتُ مَنْ قد مات قبلي بضائري ... ولا عيشُ من عاش بعدي بمُخلدي

لعلّ الذي يرجو فنائي ويدّعي ... به قبلَ موتي أن يكون هو الردي

5 النجـــاة:

ومما ساعده على النجاة أيضاً شهادة محمد بن الحسن فيه (وهو التلميذ العظيم للإمام أبي حنيفة رحمهم الله تعالى جميعاً)، ولعله كان قد التقى به في مجلس الإمام مالك.

قال محمد بن الحسن للرشيد: له من العلم حظ كبير، وليس الذي رفع عليه من شأنه. (أي هذه التهمة مستبعدة عنه).

فقال الرشيد لمحمد بن الحسن: خذه إليك حتى أنظر في أمره. وبهذا نجا الشافعي.

وعوضه هارون الرشيد عن هذه التهمة والإهانة وأعطاه خمسين ألفاً وحمله على فرس، يقول الشافعي: فما وصلتُ إلى الباب حتى فرقتها على حجّاب أمير المؤمنين والبوابين، فوصل الخبر إلى هارون الرشيد أن هذا الشاب لا يطمع في المال، فلحقه عكرمة صديق هارون الرشيد ومن حجّابه، فقال: اقبل هذه مني، فقال الشافعي: إني لا آخذ العطية ممن هو دوني، وإنما آخذها ممن هو فوقي، يقول الشافعي: فخرجتُ ولم آخذ من أموالهم شيئاً.



نجا الشافعي مما اتهم به بما أوتي من قدرة في البيان وبشهادة محمد بن الحسن فيه، فخرج من مجلس الأمير ولم يقبل شيئًا من عطاياه.

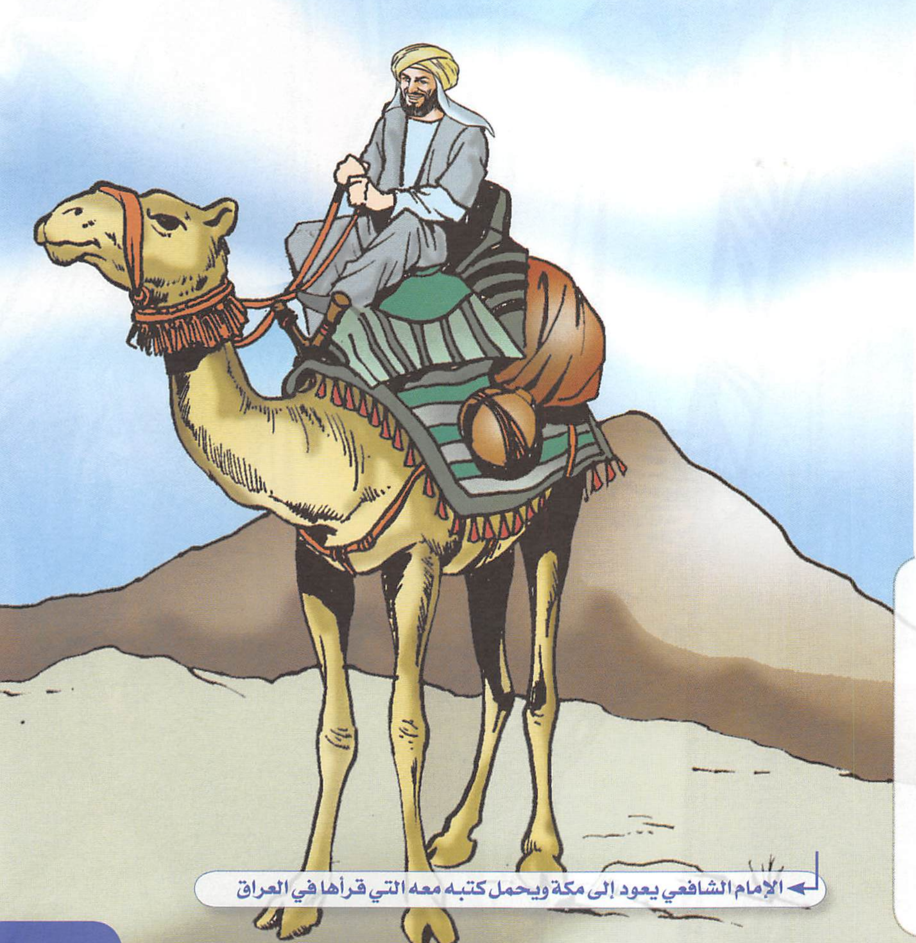
6 تلميذ الأحناف

بعد خروج الشافعي من مجلس الخليفة، نزل عند العالم الحنفي العظيم محمد بن الحسن في بيته، وأخذ يقرأ كتبه التي ألّفها في فقه العراقيين، وتلقى هذه الكتب عليه، وتحولت هذه المحنة إلى نعمة، وبذلك اجتمع له فقه الحجاز وفقه العراق، وتخرّج على فحول الفقه في زمانه، قال ابن حجر: انتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس، فرحل إليه (أي الشافعي) ولازمه وأخذ عنه، وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن حِملاً (يعني كمية كبيرة من العلم)، ليس فيه شيء إلا وقد سمعه محمد بن الحسن من أبي حنيفة مباشرة، فاجتمع له علم أهل الرأي، وعلم أهل الحديث، فتصرف في ذلك (فأضاف الشافعي علمه إلى كل هذا العلم)، حتى أصّل الأصول، وقعّد القواعد، وأذعن له الموافق والمخالف، واشتهر أمره، وعلا ذكره، وارتفع قدره حتى صار منه ما صار.

فقيهٌ مَدني عراقي

أقام الشافعي في بغداد تلميذاً لابن الحسن، ومناظراً له ولأصحابه على أنه فقيه مدني من أصحاب مالك، ثم انتقل بعد ذلك إلى مكة ومعه من كتب العراقيين حِمل بعير، ولم يذكر أكثر الرواة مدة إقامته في بغداد، ولا بد أنه أقام مدة معقولة تكفي للتخرج على أهل الرأي ومدارستهم، ولعلها كانت نحو سنتين.

في بغداد أقام الشافعي عند محمد بن الحسن وقرأ كتبه، وتلقاها عليه، فاجتمع له علم أهل الرأي، وعلم أهل الحديث، فتصرّف في ذلك، حتى صار منه ما صار، وربما كانت إقامته في بغداد نحو سنتين.



الإمام الشافعي يعود إلى مكة ويحمل كتبه معه التي قرأها في العراق





البروز في مكة









1 منهج علمي جديد

عاد الشافعي إلى مكة، وأخذ يلقي دروسه في الحرم المكي، والتقى به أكبر العلماء في موسم الحج، واستمعوا إليه، وفي هذا الوقت التقى به أحمد بن حنبل وتعلم منه، وقد أخذت شخصية الشافعي تظهر بفقه جديد، لا هو فقه أهل المدينة وحدهم، ولا فقه أهل العراق وحدهم، بل هو مزيج منهما، وخلاصة عقل ألمعي أنضجه علم الكتاب والسنة، وعلم العربية وأخبار الناس، والقياس والرأي، ولذلك كان من يلتقي من العلماء يرى فيه عالماً هو نسيج وحده.

مزج الشافعي فقه أهل الرأي الحنفي، وفقه أهل المدينة المالكي، فخرج بفقه جديد، وكان عالماً متفرداً بمنهج جديد.

ضوابط الاجتهاد

وقد طالت إقامته في مكة هذه المرة، قيل نحو تسع سنين، ورأى أنه لا بدّ من وضع مقاييس يزن بها الآراء والمناهج ليعرف أيها أهدى سبيلاً، وما هو أقرب للحق، فعكف على دراسة القرآن الكريم يعرف طرق دلالته، وعلى الأحكام ناسخها ومنسوخها، وخصائص كل منهما، وعلى السنة يعرف مكانتها من علم الشريعة، ومعرفة صحيحها وسقيمها، وطرق الاستدلال بها، ومقامها من القرآن الكريم، ثم كيف يستخرج الأحكام إذا لم يكن كتاب ولا سنة، وما ضوابط الاجتهاد في هذا المقام، وما الحدود التي ترسم للمجتهد فلا يعدوها ليأمن من شطط الاجتهاد.

لا بد للمجتهد من ضوابط وحدود ليأمن من شطط الاجتهاد، عكف الشافعي على دراستها، وبيانها، فوضع في ذلك ما يبهر العقول.

الظهور والبروز

وهكذا تطور أمر الشافعي في العلم، فكان له من علوم زمانه ما جعل شخصيته شخصية متكاملة، وبدأ هذا العلم يفيض، فذاع اسم الشافعي وكثر تلاميذه، وكانت حلقته في المسجد الحرام تضم الكثير من ذوي المكانة في العلم، يستمعون إلى طرائقه الجديدة في الأصول والكليات حتى ملأ عقولهم، وشهدوا له بالتفوق والفهم والعقل.

بعد كل رحلة يقوم بها الشافعي يعود إلى منشئه مكة، لكنه في هذه المرة عاد بفقه جديد، وبطريقة جديدة في الفهم والاستنباط، فالتفّ الناس حوله، وافتتنوا به، وطالت إقامته في مكة نحو تسع سنين، بدأ يضع فيها علم أصول الفقه.

2 ابن حنبل والشافعي

ومن كبار هؤلاء الذين تعلموا منه الإمام أحمد بن حنبل الذي وفد حاجاً إلى مكة، ودخل المسجد الحرام يلقى من به من كبار العلماء والمحدِّثين، وكان أشهرهم سفيان بن عيينة، فشغل نظره الشافعي في حلقته، ورأى فيه فهماً ثاقباً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وسمع منه أصولاً وقواعد لم يكن له عهد بسماعها من أحد، تدل على عظم عقله، وعميق فهمه، فكان يدع مجلس الشيوخ، ويلازم حلقة الشافعي.

مزج الشافعي فقه أهل الرأي الحنفي، وفقه أهل المدينة المالكي، فخرج بفقه جديد، وكان عالماً متفرداً بمنهج جديد.

الفتى القرشي

يقول محمد بن الفضل: سمعت أبي يقول: حججتُ مع أحمد بن حنبل، فنزلت في مكان واحد معه، فخرج باكراً، وخرجتُ بعده، فدرتُ المسجد فلم أره في مجلس ابن عيينة ولا غيره، حتى وجدته جالساً مع أعرابي، فقلت: يا أبا عبد الله، تركتَ ابن عيينة، وجئت إلى هذا؟!

فقال لي: اسكت، إنك إن فاتك حديث بعلوّ، وجدته بنزول (أي إذا لم تجده بسند قصير وجدته عند علماء الحديث بسلسلة طويلة من الرواة)، وإن فاتك أمر هذا الفتى، أخاف ألا تجده إلى يوم القيامة، ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى القرشي.

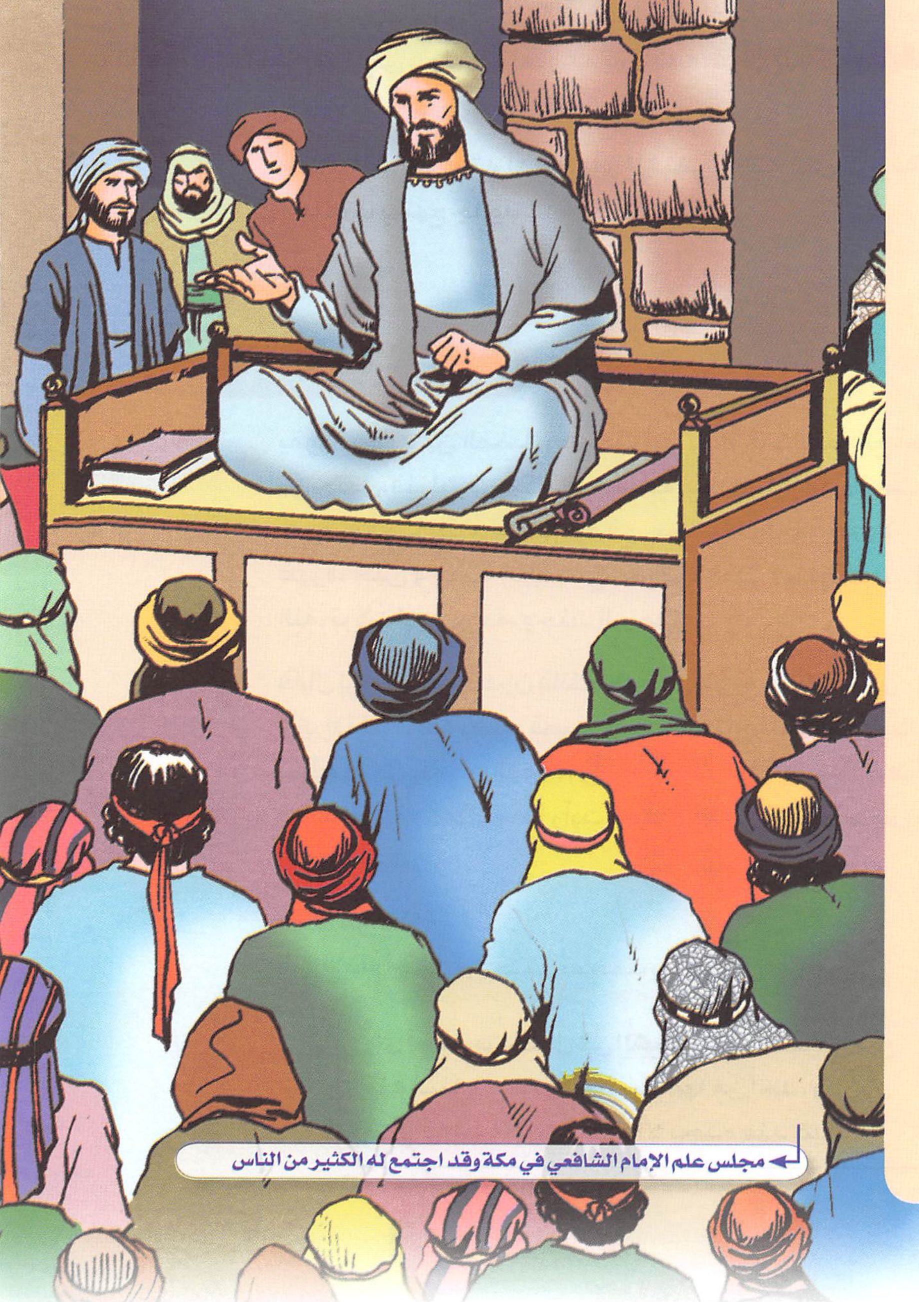
قلت: من هذا؟

قال الإمام أحمد بن حنبل: محمد بن إدريس.



الإمام الجليل أحمد بن حنبل

رأى أحمد بن حنبل في الشافعي فهماً ثاقباً وسمع منه أشياء لم يكن عهد سماعها من أحد، وبيّن أن من فاته أمره، فإنه يخاف ألا يجده عند غيره.



مجلس علم الإمام الشافعي في مكة وقد اجتمع له الكثير من الناس

لم ترعيناك مثله

وعن إسحاق بن راهويه قال: كنا عند سفيان بن عيينة نكتب أحاديث عمرو بن دينار، فجاءني أحمد بن حنبل فقال لي: قم يا أبا يعقوب حتى أريك رجلاً لم ترَ عيناك مثله.

فقمتُ، فأتى بي فناء زمزم، فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض، تعلو وجهه السمرة، حسن السَّمت، حسن العقل، وأجلسني إلى جانبه.

فقال ابن حنبل للشافعي: يا أبا عبد الله، هذا إسحاق بن راهويه الحنظلي.

فرحب الشافعي بي وحياني، فذاكرته وذاكرني، فانفجر لي منه علم أعجبني حفظه.

فلما طال مجلسنا، قلت للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، قم بنا إلى الرجل (أي نرجع إلى حلقة الإمام سفيان بن عيينة).

قال الإمام أحمد: هذا هو الرجل.

فقال إسحاق: يا سبحان الله، أقمت من عند رجل يقول: حدثنا الزهري، فما توهمت إلا أن تأتينا برجل مثل الزهري أو قريب منه، فأتيت بنا إلى هذا الشاب؟!

فقال الإمام أحمد في شهادة عظيمة للشافعي: يا أبا يعقوب اقتبس من الرجل، فإنه ما رأت عيناي مثله. (أي هو أعظم من كل من رأيت من العلماء).

3 الإقرار بعلمه:

حدّث محمد بن الحسن الزعفراني قال: كنا نحضر مجلس بشر المريسي (وهو من أكبر علماء فرقة المعتزلة التي اشتهرت بعلم المنطق)، فكنا لا نقدر على مناظرته.

فمشينا إلى أحمد بن حنبل، فقلنا له: ائذن لنا في أن نحفظ الجامع الصغير الذي لأبي حنيفة، لنخوض معهم إذا خاضوا.

فقال الإمام أحمد: اصبروا، فالآن يقدم عليكم المطلبي الذي رأيته بمكة. (الإمام الشافعي يسمونه المطلبي نسبة إلى عبد المطلب).

قال الزعفراني: فقدم علينا الشافعي، فمشينا إليه، وسألناه شيئاً من كتبه، فأعطانا كتاب اليمين مع الشاهد، فدرسته في ليلتين، ثم غدوت على بشر المريسي، وتخطيتُ إليه (أي شققت الصفوف حتى اقتربت منه)، فلما رآني بشر المريسي، قال: ما جاء بك يا صاحب حديث؟ (يستهزئ به بأنه يحفظ الحديث ولا يعرف المنطق اللازم لاستخراج أحكامه).

قلتُ ذرني من هذا (أي دعنا من رمي بعضنا بالألقاب)، ما هو الدليل على إبطال اليمين مع الشاهد؟ فناظرته، فقطعته (أقمت الحجة عليه).

فقال بشر المريسي: ليس هذا من كيسكم، هذا كلام رجل رأيته بمكة، معه نصف عقل أهل الدنيا".

هكذا كان الشافعي، وعلمه، حتى أذعن له الموافق والمخالف، وأقرُّوا بأنه يملك نصف عقل أهل الدنيا.



اشتهرت حلقة الشافعي في المسجد الحرام، وتزاحم الناس عليها، حتى العلماء منهم، ولما سمعه أحمد بن حنبل أعجب به، وأخذ يرشد إلى ملازمته، لقوة عقله وفهمه، واعتبره أعظم من رأى من العلماء.

موسوعة تسير على الأرض

وكان العلماء يشيرون إلى أن فضله أصبح يعم الناس، وتمكن من كافة العلوم، يقول ابن حنبل في مكانته، وخطر قدره، وجلالة علمه: "ما عرفتُ ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالستُ الشافعي".
ويروي تلميذه الربيع بن سليمان يقول: كان يجلس الشافعي في الجامع بعد صلاة الفجر، فيجيء أهل القرآن إلى الحلقة، فإذا طلعت الشمس قاموا، وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه، فإذا ارتفعت الشمس بداية الضحى قاموا، فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر (أي الفقه والأصول والمنطق)، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا، وجاء أهل العربية والعَروض والنحو والشعر، فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار".

هل رأيتم موسوعة تمشي على الأرض؟ هكذا كان الشافعي رحمه الله تعالى.
لقد استفاد الشافعي من علمه ووقته أيما استفادة، وأخذ ينشر هذا العلم، فيأتيه أصحاب العلوم المختلفة، ويتدارسون معه كل حسب اختصاصه.

تنوع العلوم

وحدّث محمد بن عبد الحكم قال: ما رأيت مثل الشافعي، كان أصحاب الحديث يأتون إليه، ويعرضون عليه غوامض علم الحديث، فيوقفهم على أسرار لم يقفوا عليها، فيقومون وهم متعجبون منه، وأصحاب الحديث الموافقون والمخالفون لا يقومون إلا وهم مذعنون له، وأصحاب الشعر يعرضون عليه الشعر فيبين لهم معانيه، وكان يحفظ عشرة آلاف بيت لهذيل بإعرابها ومعانيها، وكان من أعرف الناس بالتواريخ، وكان ملاكُ أمره إخلاص العمل لله تعالى.

الشافعي موسوعة من العلوم، لذا تنوعت حلقته، فيأتيه أهل القرآن، وأهل الحديث، وأهل المناظرة، وأهل العربية، كلٌ يأخذ مما عنده، وكل هذا مع التقوى والعبادة والإخلاص.

أفتِ يا أبا عبد الله

يقول ابن خلكان: اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث وأهل الفقه، واللغة والنحو وغير ذلك على ثقة الشافعي وأمانته، وعدالته وزهده وورعه، ونزاهة عرضه، وعفة نفسه، وحسن سيرته، وعلو قدره، وسخائه. ويحدّث الرازي يقول: أخبرنا أبو الحسن عن عبد الرحمن عن أبي محمد بن بنت الشافعي، قال: سمعت الجارودي يقول: قال مسلم بن خالد الزنجي وهو من أكبر العلماء في زمانه، قال لمحمد بن إدريس الشافعي وهو ابن ثماني عشرة سنة: أفتِ يا أبا عبد الله، فقد آن لك أن تفتي.

تأهّل الشافعي للفتوى وهو ابن ثماني عشرة سنة، لكنه لم يفتِ حتى صار متمكناً عالماً.



عالِم العراق





3 خضوع العلماء له

1 إلى بغداد

قد عهدنا الشافعي صاحب سفر، وتغرب في طلب العلم، فهمته العالية لا تقف به عند حد، لأن العلم ليس له حدود وأقطار، وكان يحثُّ على هذا التغرب، فيقول:

تغرّب عن الأوطانِ في طلبِ العُلا ... وسافِرْ ففي الأسفارِ خمسُ فوائدِ

تفرُّج همٍّ، واكتسابُ معيشةٍ ... وعلمٌ وآداب، وصحبة ماجدِ

بعد أن مكث الشافعي في مكة يدرس ويفحص ويلقي على تلاميذه علماً لم يألفوه من قبل، وقد لقيه كبار العلماء وأخذوا عنه، كان لا بد أن ينشر ما وصل إليه في كل البلاد الإسلامية، وخصوصاً ما وضعه من مناهج للاستنباط الفقهي، وخيرُ مكانٍ ينبثق منه نور العلم عاماً مشرقاً، هو قصبة الدولة الإسلامية وعاصمتها "بغداد"، وقد ألفها وألفته، وعرفها وعرفته.

الإمام الشافعي على مشارف بغداد

لا بد للشافعي أن ينشر علمه، وما وضعه من مناهج الاستنباط الفقهي، ليعمَّ نفعه، وخير مكان لذلك بغداد قصبة الدولة الإسلامية.

في بغداد

ولذلك رحل إلى بغداد سنة 195هـ، وهو في الخامسة والأربعين من عمره المبارك، وكانت هذه الرحلة أنفع رحلة وأخصبها، وأجداها على نفسه وعلى الناس، وقد سبقه إلى بغداد شهرة وذكر، بثّهما كبار المحدثين والفقهاء، كأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه من علماء السنة، وبشر المريسي من علماء الفرق التي ظهرت وبرز علماؤها واشتهر أمرهم.

فجاء الشافعي لينصر السنة، ويدعم أهلها، ويفتح فتحاً مبيناً في أصول فهمها، والاستنباط منها، وإحكام أحكامها، يقول النووي:

"ونشر -أي في العراق- علم الحديث، ومذهب أهله، ونصر السنة، وشاع ذكره وفضله".

وقد قال في السفر:

سأضرب في طول البلاد وعرضها ... أنالُ مرادي أو أموتُ غريبا
فإن تلفتْ نفسي فلله درها ... وإن سلمتْ كان الرجوعُ قريبا

الإخلاص في طلب الحق يقذف في القلب نوراً، وفي النفس صفاء، يجعلها تصل للحق، وتعلنه في قوة وجرأة، الشافعي يعلن مخالفة مالك فيما رآه الحق.



ناصر السنة

ثم قصد الشافعي إلى الجامع الغربي في بغداد، وفيه تعقد حلقات العلم، ينتحي منه ناحية، وبدأ يعرض أصوله وقواعده وموارد فقهه، فاسترعى نظر العلماء فيها، واحتفى به التلاميذ، ولم يستكبر علماء بغداد أن يكون فيهم تلاميذ له، غير التلاميذ الذين تلقوا عنه، وتخرجوا عليه، فأخذ العلماء يحثون تلاميذهم لحضور حلقته والتعلم منه.

وما زال الشافعي رحمه الله، يصول ويجول، ويأتي كل يوم بجديد من فهم كلام الله تعالى، وفقه حديث رسول الله ﷺ، حتى أخضع الأعناق لفضله، وحمل العلماء على الإقرار بعلمه، وظهر أمره بين الناس، وانفكت أكثر حلقات المخالفين له في الجامع الغربي، ولم يثبت منها إلا القليل.

قال إبراهيم الحربي: "قدم الشافعي بغداد، وفي الجامع الغربي عشرون حلقة لأصحاب الرأي، فلما كان يوم الجمعة لم يثبت منها إلا ثلاث حلق أو أربع".

ابراهيم الحربي

وكان أهل الرأي توسعوا في الفروع فشملت كثيراً من القضايا المرفوعة إلى القضاء، والمحدّثون كتفوا أنفسهم في أفهام سطحية للسنة، حتى حضر الشافعي بغداد، وأتاهم بفقه مؤيد بالكتاب، مدعوم بالسنة، فاستغنوا به عن غيره.

قال أحمد بن حنبل: "كانت أقضيتنا (أي أحكام القضاء) في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع، حتى رأينا الشافعي، فكان أفقه الناس في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ".

اتخذ الشافعي حلقة له في الجامع الغربي، وأخذ يعرض أصوله وفقهه، فجلس في حلقته التلاميذ والعلماء، حتى اتسعت الحلقة، وانفكت أكثر حلقات المخالفين في الجامع.

إيقاظ أهل الحديث

رأى المحدّثون في الشافعي خير قائد ناصر للحديث، متمسك بمتواتره وآحاده، يدلهم على المحجة البيضاء، كما رأى فيه المتفقهون المنصفون من يدلهم على الحجة الدامغة، والحق الناصع.

قال محمد بن الحسن الزعفراني: " كان أصحاب الحديث رقوداً، فأيقظهم الشافعي، فتيقظوا".

وقال داود بن علي الظاهري: " كان الشافعي رضي الله عنه سراجاً لحملة الآثار، ونقلة الأخبار، ومن تعلّق بشيء من بيانه صار محجاجاً ".



كان أصحاب الحديث رقوداً، فأيقظهم الشافعي، ودلهم على الحجة الدامغة والحق الناصع.

فاتح الأقفال

وقال الحُميدي: "كنا نريد أن نردَّ على أصحاب الرأي، فلم نحسن كيف نرد عليهم، حتى جاءنا الشافعي ففتح لنا".

وقال هلال بن العلاء: "أصحاب الحديث عيال على الشافعي، فتح لهم الأقفال".

وللإمام أحمد أقوال كثيرة في أثر الشافعي على المحدثين، وما فتحه لهم من مغلق الفقه، ومن معاني الحديث، من ذلك قوله: "لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث".

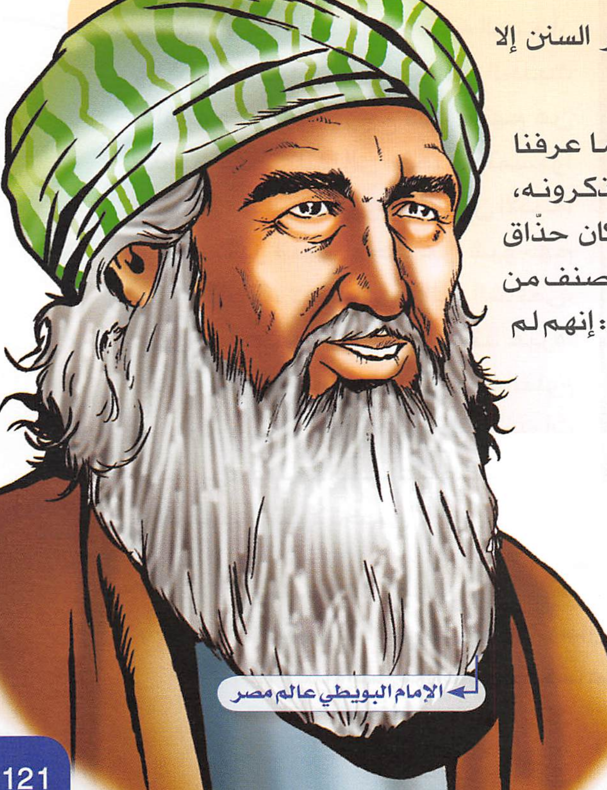
وقوله: "قدم علينا نعيم بن حمّاد، فحضنا على طلب المسند، فلما قدم الشافعي وضعنا على المحجة البيضاء".

أصحاب الحديث عيال على الشافعي، ولولاه ما عرفوا فقه الحديث.

لم يروا مثله

وقال الكرابيسي: "ما فهمنا استنباط أكثر السنن إلا بتعليم الشافعي إيانا".

وقال البويطي (وهو من علماء مصر): "ما عرفنا قدر الشافعي حتى رأيتُ أهل العراق يذكرونه، ويصفونه بوصف ما نحسن نصفه، فقد كان حذّاق العراق (أي المتميزون) بالفقه والنظر، وكل صنف من أهل الحديث، وأهل العربية والنظار يقولون: إنهم لم يروا مثل الشافعي".

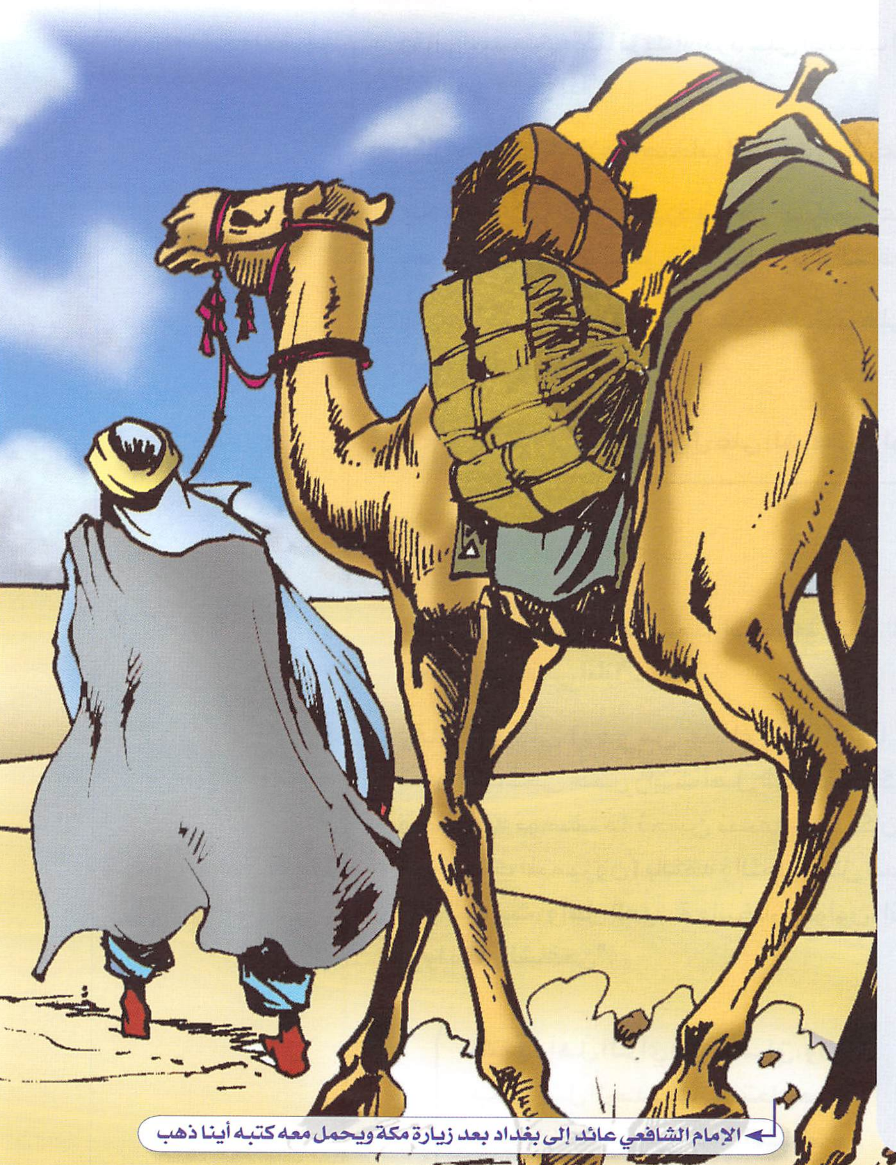


الإمام البويطي عالم مصر

اشتهر أهل الرأي في العراق، ولم يكن أهل الحديث يستطيعون الرد عليهم، حتى جاء الشافعي، فوضعهم على المحجة البيضاء، بما آتاه الله من فهم للحديث، وبيان لمعانيه، فسمي: "ناصر السنة".

3 خضوع العلماء له

قال النووي رحمه الله في جملة حال الشافعي في العراق: "فلما اشتهر جلالة الشافعي رحمه الله في العراق، وسار ذكره في الآفاق، وأذعن بفضله الموافقون والمخالفون، واعترف به العلماء أجمعون، وعظمت عند الخلائق وولاة الأمور مرتبته، واستقرت عندهم جلالته وإمامته، وظهر من فضله في مناظراته أهل العراق وغيرهم ما لم يظهر لسواه، وأظهر من بيان القواعد، ومهمات الأصول ما لم يعرف لمن عداه، وامتحن في مواطن كثيرة مما لا يحصى من المسائل، فكان جوابه فيها من الصواب والسداد بالمحل الأعلى والمقام الأسنى، عكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار، والأئمة الأخيار، من أهل الحديث والفقه وغيرهم، ورجع كثير منهم عن مذاهب كانوا عليها إلى مذهبه، وتمسكوا بطريقته، كأبي ثور، وخلائق من الأئمة، وترك كثير منهم الأخذ عن شيوخهم وكبار الأئمة، لانقطاعهم إلى الشافعي، حين رأوا عنده ما لا يجدون عند غيره، وبارك الله الكريم له ولهم في تلك العلوم الباهرة، والمحاسن المتظاهرة، والخيرات المتكاثرة، ولله الحمد على ذلك وعلى سائر نعمه التي لا تحصى".



الإمام الشافعي عائد إلى بغداد بعد زيارة مكة ويحمل معه كتبه أينما ذهب

اشتهر الشافعي في العراق، وسار ذكره في الآفاق، وعظمت قيمته عند العامة والخاصة، بما قعّد من قواعد وأصّل من أصول، وعكف على الاستفادة منه الصغار والكبار.

انتشار العلم

وفي هذه المرحلة أملى كتبه التي سمّاها الكتب البغدادية، وسنأتي على ذكرها عند الحديث عن مؤلفاته إن شاء الله تعالى.

وهكذا انتشر علم الشافعي في كل بلاد المشرق، مما وراء العراق، عن أولئك التلاميذ الذين كانوا يحتفون به في درسه، وقد استولى عليهم عامل الرغبة في الاستفادة، وعامل الإعجاب بشخصيته الفذة النادرة المثال.

وقد مكث في بغداد في هذه المقدمة مدة تزيد على سنتين، أقام فيها مذهبه، وثبت قواعده، ثم قفل عائداً إلى مكة، ليزور البيت الحرام، ويزور شيوخه بها كسفيان بن عيينة، وغيره، ولم تطل إقامته في مكة، فقد عاد إلى بغداد سنة 198هـ.

كانت رحلة الشافعي إلى بغداد هذه المرة مثمرة جداً، فقد تتلمذ على يديه عدد كبير من التلاميذ، وأملى فيها كتبه المسماة: "الكتب البغدادية".

العلم فخر

كان الشافعي فخر المجلس بعلمه، وله في هذا المعنى أبيات يقول فيها:

العلمُ مَغْرسُ كلِّ فخرٍ فافتخِرْ ... واحذَرْ يفوتَكَ فَخْرُ ذاكَ المغْرَسِ

واعلمْ بأنَ العلمَ ليسَ ينالُهُ ... من همُّهُ في مطعَمٍ أو مَلْبَسِ

ألا أخو العلمِ الذي يُعْنى بهِ ... في حالتيهِ عارياً أو مكتسي

فاجعلْ لنفسكَ منه حظاً وافراً ... واهجُرْ له طِيْبَ الرُّقادِ وعَبسِ

فلعلّ يوماً إنْ حضرتَ بمجلسٍ ... كنتَ الرئيسَ وفخرَ ذاكَ المجلسِ





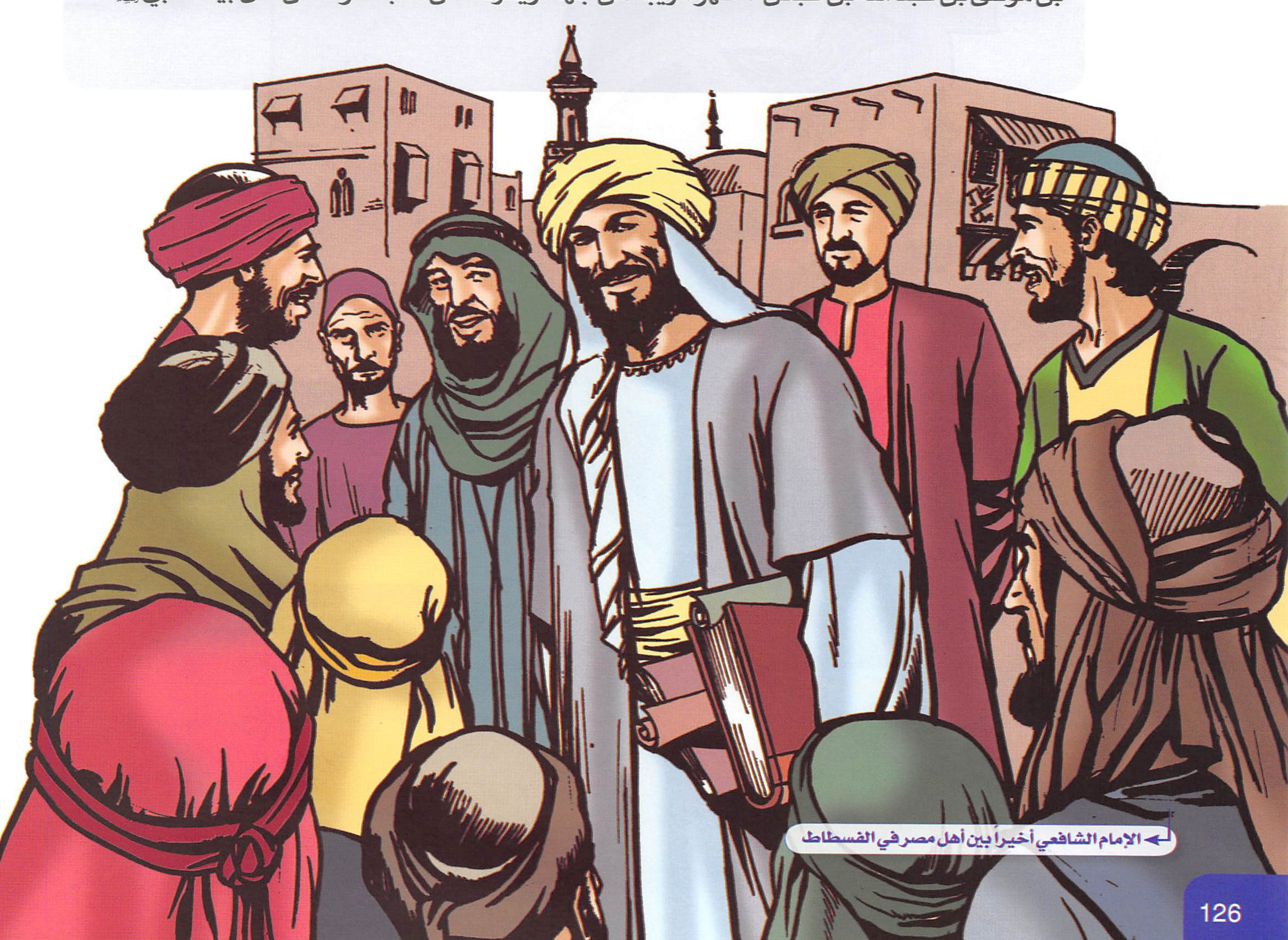
عالم مصر

1. إلى الفسطاط
2. إهمال علماء مصر له
3. ارتفع شأنه في مصر

1 إلى الفسطاط

لم يطب للشافعي المقام ببغداد في هذه المرة، ففكر في الذهاب إلى بلد يكون قريباً منها في المنزلة العلمية، ولا يكون فيه ما رأى ببغداد من تحكم الفرس بالعرب، فوجد بغيته في مصر؛ لأن مدينة الفسطاط هناك هي مدينة العلم، أقام فيها الإمام الجليل الليث بن سعد، وانتشر علمه، كما انتشر فيها مذهب الإمام مالك على يد كبار تلاميذه الذين ذهبوا إلى مصر، بالإضافة إلى أن واليها كان قرشياً عباسياً.

قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء: "كان سبب قدومه إلى مصر أن واليها العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن عباس". فهو قريبه من جهة، ويعرف حق نسبه لكونه من أهل بيت النبي ﷺ..



الإمام الشافعي أخيراً بين أهل مصر في الفسطاط

الشوق إلى مصر

وقد قال الشافعي في شوقه إلى مصر:

لقد أصبحَتْ نفسي تتوقُ إلى مصر ... ومن دونها قطعُ المهامه والقفر
فوالله ما أدري ألِلفوز والغنى ... أساقُ إليها؟ أم أُساقُ إلى القبر

وسبحان الله! ذهب إلى مصر، فوجد فيها الفوز والغنى والقبر!

وصل إليها سنة 199هـ، وعاش فيها أكثر من خمس سنين، وقد نال الغنى، إذ فَرَض ذلك الوالي العربي عطاء له من سهم ذوي القربى من رسول الله ﷺ، ناله بشَرَف نسبه، ونال الفوز بنشر أرائه وعلمه وفقهه، ثم ناله الموت، فكان قبره بمصر. رحمه الله تعالى..

الفسطاط مدينة العلم، فيها عدد كبير من العلماء الكبار، كالليث بن سعد، وتلاميذ الإمام مالك وغيرهم، فرغب الشافعي في الذهاب إليها، ونال فيها الفوز والغنى، ووافته المنية فيها.

2 إهمال علماء مصر له

في بداية وصول الشافعي إلى مصر ما عرف علماؤها قيمته، ولم يلتفتوا إليه ويجتمعوا حوله ليستفيدوا من علمه، فطلب منه بعض أصحابه أن يتحدث للعامة من الناس، ويظهر لهم أشعاره وعلمه، ليعرفوا مكانته وفضله، فرفض أن يضع علمه بين من لا يفهمه، فهو ليس بواعظ أو قصاص، بل هو فقيه أصولي وعالم عميق، فقال:

أأنثُرُ دُرًّا بين سارحة البهم ... وأنظم منثوراً لراعية الغنمْ
لَعمري لئن ضُيِّعتُ في شرِّ بلدةٍ ... فلستُ مُضيّعاً فيهم غُررَ الكلمْ
لئن سهَّل اللهُ العزيزُ بلطفه ... وصادفتُ أهلاً للعلوم وللحكمْ
بَثَثْتُ مُفيداً واستفدتُ وِدادَهم ... وإلا فمكنونٌ لديّ ومكتّتَمْ
ومن منح الجُهّالَ علماً أضاعَهُ ... ومن منعَ المستوجبين فقد ظَلَمْ

هكذا يعلمنا الشافعي الحكمة في وضع الأمور مواضعها، وألا يُبث العلم إلا بيد من هم أهل له، فنشره بين جهَّال لا يفهمونه إضاعة له.



3 ارتفاع شأنه في مصر:

هذا في بداية مجيئه إلى مصر، ثم بدأ الناس يعرفونه أولاً بأنه من أهل البيت، ثم بدؤوا يطلعون على علمه ومكانته، فأحبوه حباً شديداً، وأحبهم هو كذلك، وذاع بين الناس أنه جاء رجل من قريش له علم عظيم.

يقول هارون بن سعيد الأيلي: "ما رأيتُ مثل الشافعي، قدم علينا مصر، فقيل: قدم رجل من قريش، فجئناه وهو يصلي، فما رأينا أحسن صلاة منه، ولا أحسن وجهاً، فلما تكلَّم ما رأينا أحسن كلاماً منه، فافتتنا به".

ويقول الربيع بن سليمان: "واللهِ لقد فشت في الناس شهرته كما فشا ذكر علي بن أبي طالب".

وهكذا أخذ الإمام الشافعي ينشر أصوله وآراءه وفقهه، ويستنبط الأحكام ويؤيدها بالأدلة، وصارت له في جامع عمرو بن العاص t حلقة ضخمة جداً، متعددة الفروع، فيأتي إليها أهل القرآن، ثم أهل الحديث، ثم أهل المناظرة والمذاكرة، ثم أهل العربية والعروض والنحو والشعر، يتعلمون على يد الشافعي.

في مصر وفي جامع عمرو بن العاص جلس الشافعي ينشر أصوله وآراءه، وفشت شهرته وفشا ذكره، حتى صارت له حلقة ضخمة جداً، تجاوزت حلقته في الجامع الغربي في بغداد، في تنوعها وفي عدد تلاميذها.

علم جامع

قال ابن عبد الحكم: "ما رأينا مثل الشافعي، فإن أصحاب الحديث ونقاده يجيئون إليه، فيعرضون عليه، فربما أعلّ نقد النقاد منهم، ووقفهم على غوامض من نقل الحديث لم يقفوا عليها، فيقومون وهم يتعجبون، ويأتيه أصحاب الفقه الموافقون والمخالفون، فلا يقومون إلا وهم مذعنون له بالحِذْق والدراية، ويجيئه أصحاب الأدب فيقرؤون عليه الشعر فيفسره، ولقد كان يحفظ عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها وغريبها ومعانيها، وكان من أضبط الناس للتاريخ، وكان يُعينه شيئان: وفور عقل وصحة ذهن، وملاك أمره: إخلاص العمل لله".

ألا فلينظر الشباب، ولينظر العلماء إلى هذا العالم النحرير، الذي ما ترك علماً إلا وكان فيه نجماً ساطعاً، فليكن هو وأمثاله قدوتنا، لعلنا نبلغ بعض ما بلغوا.

الفقه الجديد

في هذه الرحلة وفي أثناء وجوده في مصر كتب أهم كتبه، وأعاد صياغة بعض كتبه القديمة، فقد رأى معاملات جديدة، وطبائع جديدة، مما جعله يرجع عن بعض أقواله، ويعيد النظر فيها، لذلك يقولون: الشافعي في فقهه القديم؛ أي في الحجاز والعراق، والشافعي في فقهه الجديد؛ أي في مصر، وأعاد تأليف كتابه العظيم: الرسالة، وكان قد ألّفه في الحجاز، وجمع أهم مؤلفاته في الفقه، وأكثر مؤلفاته جمعها في كتاب نفيس هو كتاب: الأم.

تثبيت المذهب

فهذه الزيارة إلى مصر كانت سبباً في تغيير بعض آرائه، كما كانت سبباً رئيسياً من أسباب تثبيت المذهب الشافعي، وانتشار هذا المذهب العظيم.

مصر بلدٌ يعج بالحياة والحركة، تعرّف فيه الشافعي على طبائع جديدة، ومعاملات جديدة، مما جعله يعيد النظر في كتبه القديمة، ويرجع عن بعض الآراء فيها، كما أعاد صياغة كتابه "الرسالة"، وجمع أكثر مؤلفاته في كتابه: "الأم".



الإمام الشافعي يدوّن مذهبه الجديد في مصر





الباب الرابع

أصول المذهب وخصائصه



الفصل الأول

عقيدته وآراؤه



1 أنضر عصور الإسلام

2 الشافعي وعلم الكلام

3 أقواله في العقيدة

4 الخلافة واختلاف الصحابة

5 حبه لآل البيت



أنضر عصور الإسلام، حضارة وفكراً وثقافة وعلماً، القرون الأولى الثلاثة، وهو العصر الذي عاش فيه الإمام الشافعي بأربع وخمسين سنة في بداية العهد العباسي.

وقد تجلّت في هذه الفترة قوة الحكم واستقراره، فملك الخليفة عِنان الدولة، وبسط جناح نفوذه على رقعتها الكبيرة، وساس فيها بحزم وعزم أجناساً من الناس، تختلف عنصراً وبيئة، وثقافة وتحضراً.

والتقت في هذا العصر الحضارات القديمة، حضارات الهند، وفارس، واليونان، في صقع واحد، تحت ظل ذلك الدين الجديد، وتمّ المزج بين تلك الحضارات المتباينة أصولها، فالتقت في ذلك الجيل متآلفة النغمات، غير مضطربة ولا متنازعة إلا في بعض الأحوال عن بعض الناس ممن لم يندمجوا في ذلك الدين الجديد ويأتلفوا معه.

القرن الأول من الحكم العباسي كان فترة استقرار الحكم وبسط نفوذه على البلاد، وقد امتزجت فيه الحضارات المتباينة، تحت ظل الدين الإسلامي.

الخصب العقلي

وهو عصر الخصب العقلي المستقل المنتج، انطلقت فيه الألسنة، وانبجست الأفكار من عقولها، ونشطت الآراء، والمذاهب والنحل من عِقالها، ونُقلت من اليونانية والفارسية إلى العربية فلسفات وعلوم، ونظم وثقافات، وحفلت مجالس الخلفاء والأمراء والقواد بالعلماء والفقهاء والفلاسفة، والشعراء والرواة والقصاص.

كانت المجالس حافلة بالعلماء من مختلف العلوم، وانطلقت الألسنة، ونشطت الآراء، فكان هذا العصر عصر الخصب العقلي المتميز.

ازدهار العلوم

فكان هذا العصر، عصر ازدهار العلوم، وابتداء التدوين، ووضع الأصول لكل علم من العلوم، فكانت اللغة تدوّن وتوضع أصولها، ، فأخلاف أبي الأسود الدؤلي أخذوا يضعون الأصول لعلم النحو، والأصمعي وغيره أخذوا يضبطون الروايات للشعر وينقلونه، والخليل بن أحمد وضع علم العروض الذي كان ضابطاً لأشعار العرب وأنغامها، والجاحظ أخذ يوجه الأنظار إلى طرائق النقد الأدبي، وهكذا غير هؤلاء.

ازدهرت العلوم، وابتدأ التدوين في هذا العصر، فدونت اللغة، وعلم النحو، كما وضع علم العروض ليضبط الأشعار، وغير ذلك، فكان عصراً ذهبياً في العلوم.

ميزان الحديث

وفي الأحاديث اتجه العلماء إلى جمعه من ينابيعه المختلفة، وشمّر المحدَّثون عن ساعد الجد، وابتدأت الأصول توضع؛ لتكون ميزاناً يُعرف به الخبر الذي تصح روايته، ويضعون ضوابط ومقاييس يتعرفون بها الثقات من الرجال، ويخرجون بها الشاذ من المرويات، ويبينون ما يصح أن يكون حجةً في الدين، وما لا يصح، ثم يدونون ما صحّ عندهم ورجح صدقه، على مقتضى مقاييسهم.

كثر الكذب على رسول الله ﷺ، فاتجه العلماء إلى وضع ضوابط لمعرفة الرجال الثقات والأحاديث الصحاح، وتدوينها.

المدارس الفقهية

وفي الفقه تكونت المدارس المختلفة، فكانت مدرسة الفقه المالكي الذي ينقل آراء ابن عباس.

وفي المدينة كانت مدرسة الفقه المدني الذي كان ينقل فقه عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وغيرهم من فقهاء الصحابة الذين نقلوا علم النبي ﷺ إلى الأخلاف مطبّقاً، وقد أخذ الفقه طريقه في التدوين، فالإمام مالك يدوّن الموطأ الذي اشتمل على كثير من فقهه، مع ما فيه من سنة مروية، وفتاوى الصحابة منقولة عن تلاميذهم، والإمام محمد بن الحسن يدوّن الفقه العراقي، ويفرع فروعه في دقة وإحكام في التأليف.

تكونت في الفقه مدارس مختلفة، كمدرسة الفقه المالكي، ومدرسة الفقه المدني، ومدرسة الرأي، وقد أخذ الفقه طريقه في التدوين كبقية العلوم.

المؤتمر العلمي

والشافعي قد استفاد من كل هذا، فهؤلاء الفقهاء والمحدّثون ينتقلون في البلاد، وينتجعون الأقاصي والأداني؛ طلباً للحديث، وطلباً للفقه، وطلباً للقرآن، فيلتقي الشافعي بهم، وخصوصاً في البيت الحرام الذي كان مؤتمراً علمياً، يلتقي فيه العلماء من كل فجٍّ عميق، ويتبادلون فيه الأنظار العلمية المختلفة، يتناظرون في تعرّف صحيح الآراء من سقيمها، ولقد كان الحرم المكي مقام الشافعي في نشأته الأولى، وعندما أخذ يدرس مستقلاً بعد مزايلته بغداد للمرة الأولى التي درس فيها فقه أهل الرأي، واستمع إليهم وجادلهم، وسمع من محمد بن الحسن كتبه.

الحرم المكي هو مقام الشافعي في نشأته الأولى، وبعد عودته من بغداد في المرة الأولى، وكان في مقامه هذا يلتقي بالعلماء من كل مكان ويتبادلون الآراء، ويتناظرون.



مُلتقى الفقهاء

ثم ها هم فقهاء الرأي، وفقهاء الحديث يلتقون في مكان واحد، ويتناظرون طلباً للحقيقة، فيأخذ كلٌ منهم ما عند الآخر، فنجد فقهاء الحديث يأخذون بالرأي، وفقهاء الرأي يؤازرون آراءهم بالحديث، أو يهذبون آراءهم لتلتقي مع الحديث الصحيح الذي وجدوه بعدما تفقدوه، أو يعدلون عن بعض هذه الآراء، لمباينتها لما علموا من حديث.

وهذا علم الصحابة الذين تفرقوا في الأمصار في عهد الخلفاء الراشدين يلقى على الفقهاء جميعاً بسبب النجعة والارتحال، فيجتمع فقهاء البلدان ويتبادلون ما توارثوه عن الصحابة، فيدرسون تلك الآراء، ويختار كل فقيه من هذه الآراء ما يكون أقرب إلى نزعته، أو ما يكون أقوى دليلاً في نظره، أو ما يراه أصلح للناس في بيئته وعصره، ثم يتناقشون فيما يرجح كل واحد منهم، وفيما يدع ويذر.

أخذ فقهاء الرأي وفقهاء الحديث يجتمعون، ويأخذ كل ما عند الآخر، ويتبادلون ما توارثوه من الصحابة، ويتناقشون، ويختار كل فقيه ما يراه أقوى دليلاً، أو أصلح في بيئة عصره.

مقاييس الاستدلال

وفي هذا العصر، أخذ الفقه يتجه اتجاهاً كلياً بعد أن كان نظراً جزئياً، وأخذ الدرس يتجه إلى الأصول التي تتفرّع منها الأحكام الجزئية، ويبني عليها، ومكان الأدلة بعضها بالنسبة لبعض، وبعبارة جامعة اتجه تفكيرهم في مناظراتهم إلى وضع مقاييس الاستدلال الفقهي وأصول الاستنباط.

جاء الشافعي في ذلك العصر، وفي وسط ذلك اللجب العلمي القوي عاش الشافعي وخاض غمار المناظرات، وأخذ من تلك الثروة العلمية العظيمة، وفي ظل هذا العصر خرج الشافعي بقوة مواهبه ودراساته، وحسن اتجاهاته، خرج على الناس بآرائهِ ومذهبه.

عصر الشافعي هو عصر ازدهار العلوم، والتقاء الحضارات، وعصر التدوين، ووضع الأصول لكل علم، فهو أنضر عصور الإسلام حضارة وفكراً وثقافة وعلماً، جاء الشافعي وسط هذا اللجب العلمي، ونهل من تلك الثروة العلمية العظيمة، ثم خرج على الناس بآرائه ومذهبه.

2 الشافعي وعلم الكلام

ورغم الازدهار العلمي الذي كان في ذلك العصر؛ إلا أن الانحرافات الفكرية برزت كذلك، وظهر في عصر الشافعي آراء مختلفة، ونحل متباينة، وقد ظهر علم سمّوه علم الكلام، أقام المعتزلة قواعد بنيانه، وخاض الناس في أن الكلام صفة لله، أو ليس بصفة، وفي أن القرآن مخلوق أو غير مخلوق، كما خاضوا في أن أوصاف الله تعالى هي معان غير ذات الله، أو هي والذات معنى واحد؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يُعرف إلا بصفاته.

وتكلموا هم وغيرهم من الجبرية في القدر، وفي إرادة الإنسان بجوار ما قدره الله سبحانه وتعالى.

وظهرت كذلك الفرق السياسية من شيعة وخوارج وعباسيين.

علم الكلام، علمٌ ظهر في عصر الشافعي، أقام المعتزلة قواعده، وخاضوا في مسائله، كما ظهرت فرق سياسية مختلفة، وكلٌّ يتكلم بما يراه، وانتشرت الفرق العقائدية المختلفة كذلك.

كراهية ونهي

هذا الحوار العقائدي والسياسي الذي شغل الناس وتمزقوا بسببه كان لا بد أن يكون لهمكان من تفكير الإمام الشافعي سلباً أو إيجاباً، إقبالاً أو رداً.

وكان أثر علم الكلام وما يتفرع منه سلبياً في تفكير الإمام الشافعي، وقد صرّح بكره علم الكلام، ونهى عن الاشتغال به، وكان ينفر من المتكلمين، ولا يحب أن يجالسهم، ولا أن يسمع مقالاتهم، ويقول: "ما شيء أبغض إليّ من الكلام وأهله".

وأُثر عنه أنه قال: "إياكم والنظر في الكلام، فإن الرجل لو سُئل عن مسألة في الفقه فأخطأ فيها، كان أكثر شيء أن يُضحك منه كما لو سُئل عن رجل قتل رجلاً، فقال: ديته بيضة، ولو سُئل عن مسألة في الكلام فأخطأ نُسب إلى البدعة".

وكان رحمه الله يقول: "لأن يلقى اللهَ عز وجل المرءُ بكل ذنب -ما خلا الشرك بالله تعالى- خير له من أن يلقاه بشيء من هذه الأهواء".

وروي عنه أنه قال: "لو يعلم الناس ما في علم الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد".

كره الشافعي علم الكلام، وحذّر تلاميذه من الاشتغال به، وبيّن أن فيه من الأهواء ما لو علمه الناس لفروا منه فرارهم من الأسد.

يَعلم الكثير

ومع نهيه عن الكلام كان يعلم الكثير منه، وما كان لمثل الشافعي أن ينهى عن أمر لا يعلمه، ولقد دخل مرة على تلاميذه فوجدهم يتناظرون في علم الكلام.

فقال لهم: "أتظنون أني لا أعلمه؟ لقد دخلتُ فيه حتى بلغت مبلغاً عظيماً، إلا أن الكلام لا غاية له (أي ليس له هدف)، تَناظَروا في شيء إن أخطأتم فيه يُقال: أخطأتم، ولا يُقال: كفرتم".

وليس معنى نهي الشافعي عن النظر في علم الكلام أنه ليس له رأي في المسائل التي خاض فيها المتكلمون كرؤية الله تعالى يوم القيامة، ومسألة القدر، ومسألة الصفات، بل كان للشافعي رأي يتفق مع منهاجه في الفقه، وهو الأخذ بكل ما جاء به القرآن، وما جاءت به السنة، غير باحث في الأدلة التي يسوقها المتكلمون إلا بالمقدار الذي يؤيد النصوص.

الشافعي الفقيه العالم، كان على علم بأكثر المسائل التي خاض فيها علماء الكلام، لكنه رأى أن الخوض فيه لا غاية له، فكرهه، ونهى عن الاشتغال به، خشية الوقوع في البِدع أو في الكفر.

3 آراؤه في العقيدة

رأيه في مسألة خلق القرآن:

كان يقول كما يقول الفقهاء والمحدثون: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وثبت ذلك مستشهداً بقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾

(النساء: من الآية164).

عقيدة الشافعي أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

رؤية الله تعالى

جمهور علماء السلف متفقون على أن أهل الجنة يرون ربهم لظاهر قوله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ× إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(القيامة:23-22).

ولما روى مسلم في صحيحه: عن صهيب عن النبي ﷺ قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل"، وفي رواية ثم تلا:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: من الآية26).

ولما روى جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ جلوساً، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: "إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوها" (متفق عليه)، ثم قرأ:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ (طه: من الآية130).

رؤية الله عز وجل في الجنة أعظم نعيم، يؤتيه الله للمؤمنين، وقد اتفق الجمهور على ذلك مستدلين بآيات كريمة وأحاديث صحيحة عن النبي ﷺ تصرح بذلك.

رأي الشافعي

ومذهب الشافعي في هذا هو ما قاله جمهرة من علماء السلف: وهو أن أولياء الله يرون ربهم في الآخرة، ويستدل عليها من القرآن بقوله تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾

(المطففين:15).

ويقول: لما حُجب عن الكفار في السخط، دل على أن الأولياء يرونه في الرضا.

رأي الشافعي كرأي الجمهور، بأن الأولياء يرون ربهم في الآخرة إكراماً وتنعيماً لهم، وأن الكفار محجوبون محرومون من هذه الرؤية عقوبة لهم وحرماناً.



القضاء والقدر

وكذلك يؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره، ويستنبط الرازي من خطبه أنه يرى أن الله يخلق أفعال الإنسان بمشيئته وكسب الإنسان، ولقد حكى الربيع عن الشافعي أنه كان يقول: الناس لم يخلقوا أعمالهم، بل هي من خلق الله عز وجل. ويستشهد بقوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصافات:96).

ولكنه يثبت حرية الاختيار للإنسان، وبناءً عليها يحاسب..

فالإنسان يختار ويشاء، ولكن ضمن مشيئة الله تعالى واختياره، والله هو الخالق للإنسان وأفعاله..

إيمان الشافعي بقضاء الله وقدره، مستمدّ من إيمانه بالله عز وجل، ويرى أن أفعال الناس هي من خلق الله، وليست من خلقهم.

الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص

كان الشافعي رحمه الله تعالى يقول: الإيمان تصديق وعمل، وكان يحتج لذلك، ويدعو إليه، وإذا كان الإيمان تصديقاً وعملاً فهو يزيد وينقص بزيادة العمل ونقصه.

وقد احتج الشافعي لهذا الرأي بأدلة منها: أن الله سبحانه وتعالى: لما صرف القبلة عن بيت المقدس، قال قوم: أرأيت صلاتنا التي كنا نصليها إلى بيت المقدس ما حالها؟ فأنزل الله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)(البقرة: من الآية143)، فسمّى الصلاة إيماناً، وهي قول وعمل وعقد.

واحتج لزيادة الإيمان ونقصه بقوله تعالى: (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً)(التوبة: من الآية124).

وقوله تعالى: (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً)(الكهف: من الآية13).

قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص".

وهكذا نرى الشافعي يعلن عقيدته، وما يراه في بعض المسائل التي خاض فيها علماء الكلام من غير أن ينغمس فيه انغماساً، ويخوض في فلسفته التي أضلّت أفهاماً، وتحيرت بها عقول.

من آراء الشافعي في بعض المسائل التي خاض فيها علماء الكلام:أن الإيمان تصديق وعمل، وإذا كان كذلك فهو يزيد بزيادة العمل، وينقص بنقصه، واستدل على ذلك بآيات من القرآن تؤيد رأيه، ولم يخض في المسائل كما خاضوا، وإنما بيّن عقيدته في بعض المسائل.

وقال في ذلك:

شَهِدْتُ بأن اللهَ لا ربَّ غيرَهُ	وأشهدُ أن البعثَ حقٌ وأخلصُ
وأن عُرى الإيمان قولٌ مبينٌ	وفعلٌ زكيٌ قد يزيدُ وينقصُ



الإمام يشرح للناس قضية الإيمان والقضاء والقدر



4 الخلافة واختلاف الصحابة

شروط الخليفة

ومن المسائل التي أثارها المتكلمون، وأثارتها الفرق السياسية: مسألة الخلافة، وشروطها، ولأن هذه المسألة لها صلة .
ريبة أو بعيدة بالفقه؛ فقد أثر رأي الشافعي فيها:
كان يعتقد أن الخلافة أمر ديني لا بد من إقامتها، فلا بد للناس من إمام يعمل تحت ظله المؤمن، وينضبط الفاسق، حتى يستريح برٌّ، ويُستراح من فاجر، كما قال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

كما يرى أن الإمامة في قريش، ويروى في ذلك عن عمر بن عبد العزيز، وابن شهاب الزهري بسند متصل أن النبي ﷺ قال: "من أهان قريشاً أهانه الله".

ويروى أيضاً أن النبي ﷺ قال لقريش: "أنتم أولى بهذا الأمر ما كنتم على الحق إلا أن تعدلوا (أي تعدلوا عنه) فتلحوا كما تلحى هذه الجريدة". (فتلقوا وتتركوا كما تلقى هذه الجريدة).

والشافعي لا يشترط لصحة الخلافة أن تكون البيعة سابقة على تولي الحكم حيث تجيء الخلافة من غير بيعة إن كان ثمة ضرورة، وقد أُثر عنه أنه قال فيما يروي تلميذه حرملة: كل قرشي علا الخلافة بالسيف واجتمع عليه الناس فهو خليفة.

فالعبرة عنده في الخلافة: كون المتصدي لها قرشياً، واجتماع الناس عليه، سواء قبل تولي دفة الحكم أو بعده، والعدالة شرط بدهي.

وكان يعتقد أن أحق الناس بالخلافة كان الصدّيق، ثم الفاروق، ثم ذو النورين، ثم إمام الهدى علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم جميعاً.

وروي أنه يعد الخلفاء الراشدين خمسة، فيزيد على الأربعة من أصحاب رسول الله ﷺ عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى.

ويقول في ذلك:

وأن أبا بكرٍ خليفةُ ربّهِ ... وكان أبو حفصٍ على الخير يحرصُ
وأُشهدُ ربي أن عثمانَ فاضلٌ ... وأن علياً فضلُهُ متخصِّصُ
أئمةُ قومٍ يُهتدى بهداهُمُ ... لحى اللهُ من إياهُمْ يتَنَقَّصُ

كان الشافعي يعتقد أن الإمامة أمر ديني لا بد منه، والعبرة عنده كون المتصدي لها قرشياً، واجتماع الناس عليه، والعدالة شرط لها، ويرى أن أحق الناس بالخلافة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم جميعاً، وخامس الخلفاء الراشدين: عمر بن عبد العزيز.



الخلاف بين علي ومعاوية

وفي الخلاف الذي وقع بين علي كرّم الله وجهه، وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كان الشافعي يرى أن علياً على الحق، ومعاوية ما كان على الحق، بل كان باغياً، وكذلك كان الخوارج بغاة أشد، ولذلك أخذ أحكام البغاة من معاملة علي رضي الله عنه للخارجين عليه.

ويروى في ذلك أنه قيل لأحمد بن حنبل: إن يحيى بن معين ينسب الشافعي إلى الشيعة.

فقال أحمد ليحيى بن معين: كيف عرفت ذلك؟

فقال يحيى: نظرت في تصنيفه في قتال أهل البغي، فرأيته قد احتج من أوله إلى آخره بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فقال أحمد: يا عجباً لك! فبمن كان يحتج الشافعي في قتال أهل البغي؟ فإن أول من ابتُلي من هذه الأمة بقتال أهل البغي هو علي بن أبي طالب. (أي بمن يحتج إن لم يكن بعليّ فهو أول من تولى قتال البغاة).

هذه جملة آراء الشافعي في الخلاف بين الصحابة، وفي الإمامة باختصار.

ويرى في الخلاف بين علي ومعاوية: أن علياً كان على الحق، وقد أخذ أحكام البغاة من معاملة علي للخارجين عليه، لأنه أول من ابتلي بقتال أهل البغي.

5 حبه لآل البيت

ولكن الشافعي مع هذا الآراء كان ككل مسلم تقي يحب آل النبي صلى الله عليه وسلم وعترته الطاهرة المباركة، ولا يبالي أن يُرمى بأنه رافضي إذا كان محب آل محمد رافضياً، فيقول:

إن كان رفضاً حب آل محمد　　　فليشهد الثقلان إني رافضي

أما إعجابه بعلي رضي الله عنه فأمر قد تضافرت به الأخبار، ذُكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مجلسه، فقال رجل: ما نفر الناس من علي إلا لأنه كان لا يبالي بأحد. (أي كان جريئاً بدرجة لا يراعي فيها أحداً).

فقال الشافعي رحمه الله تعالى: كان فيه أربع خصال لا تكون خصلة واحدة للإنسان إلا يحق له ألا يبالي بأحد: إنه كان زاهداً، والزاهد لا يبالي بالدنيا وأهلها.

وكان عالماً، والعالم لا يبالي بأحد.

وكان شجاعاً، والشجاع لا يبالي بأحد.

وكان شريفاً، والشريف لا يبالي بأحد.

ولقد قال في علي رضي الله عنه: وكان علي كرّم الله وجهه قد خص بعلم القرآن والفقه؛ لأن النبي ﷺ دعا له، وأمره أن يقضي بين الناس، وكانت قضاياه تُرفع للنبي ﷺ فيمضيها.

وهكذا نجد الشافعي رحمه الله تعالى يتحرى القصد والاعتدال في آرائه دائماً، فهو يحب علياً رضي الله عنه ويعجب به، ويعتبر الخارجين عليه بغاة، ويعتبر معاملته لهم حجة يأخذ بها، ولكنه لا يدفعه الحب إلى تقديمه على أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين.

الشافعي مثل أي مسلم يحب آل النبي ﷺ، وكان يحب علياً رضي الله عنه ويعجب به، دون أن يقدمه على أبي بكر وعمر وعثمان، فكان يتحرى القصد والاعتدال في آرائه دائماً.



الشافعي يفصل للناس في قضية الخلافة

مدح آل البيت

وله أبيات في ذلك:

إذا في مجلسٍ نذكر علياً	وسبطيهِ وفاطمةَ الزكيَّة
يُقالُ تجاوزوا يا قومُ هذا	فهذا من حديثِ الرافضيَّة
برئتُ إلى المهيمنِ من أناسٍ	يرونَ الرفضَ حبَّ الفاطميَّة

الفصل الثاني

الإمام الشافعي



1. أصول الشافعي
2. مؤلفات الشافعي
3. مصادر الفقه الشافعي
4. شيوخ الشافعي



1 أصول الشافعي

لم يتجه الشافعي إلى تكوين مذهب مستقل، أو آراء فقهية مستقلة عن آراء مالك، إلا بعد أن غادر بغداد في رحلته الأولى سنة 184هـ. فبعد أن أقام ببغداد أمداً غير قصير، درس فيه على محمد بن الحسن كتبه، وجادل أهل الرأي وناظرهم، أحسّ بأنه لا بد أن يخرج للناس بمزيج من فقه أهل العراق وأهل المدينة، ثم إن المناقشة في الفروع وجّهته إلى تعرّف أصولها والبحث عن ضوابطها ومقاييسها، فخرج من بغداد وقد أخذ يرسم خطوطاً جديدة.

بعد أن أقام الشافعي ببغداد، ودرس كتب فقه أهل الرأي وناظرهم، أراد أن يخرج بمزيج من فقه أهل العراق وأهل المدينة، فأخذ يرسم خطوط مذهبه الجديد.

في مكة المكرمة

ذهب إلى مكة، واتخذ له حلقة في المسجد الحرام، وبذلك ابتدأ مذهبه، وأقام بمكة مدة ربما بلغت تسع سنوات، كانت أخصب حياته العلمية؛ لأنه كان قد بلغ أشده، وقد اطّلع على الآراء المختلفة لعلماء جيله، ودارسهم، وأخذ ما عندهم، ولأنه قد جمع برحلاته أكثر ما عند أهل كل بلد من أحاديث، ونستطيع أن نقول: إن تفكيره في هذه الفترة كان في الكليات أكثر منه في الفروع، ولعل أكثر دروسه في حلقته كان يتجه بها هذا الاتجاه، يدارس فيها تلاميذه طرائق الاستنباط ووسائله، ويوازن بين المصادر الفقهية، ويتعرض للفروع بمقدار ما يوضح نظرياته.

بلغ الشافعي أشده، واطّلع على الآراء المختلفة، وتجمعت لديه حصيلة ضخمة من العلم، وجّهت تفكيره نحو الكليات ودراسة طرق الاستنباط ووسائله.

أخاف ألا تجده

ولعلّ تلك الدراسة الكلية هي التي استرعت الإمام أحمد بن حنبل عندما رأى الشافعي في حلقة درسه بمكة، وجعلته يترك حلقة ابن عيينة وهو يروي عن الزهري إلى حلقة الشافعي، حتى إذا لامه لائم في ذلك قال له: اسكت، فإن فاتك حديث بعلو تجده بنزول، وذلك لا يضرك، أما إن فاتك عقل هذا الفتى، فإني أخاف ألا تجده إلى يوم القيامة، ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى القرشي. ثم لعل مجيئه بهذه الكليات هو الذي جعل أحمد يقول فيه: كان الفقه قفلاً على أهله، حتى فتحه الله بالشافعي.

إن فاتك عقل هذا الفتى أخاف ألا تجده إلى يوم القيامة، هكذا قال الإمام أحمد بن حنبل في الشافعي عندما رآه بمكة، مما جعله يلزم حلقته، ويترك حلقة ابن عيينة.



الإمام عبد الرحمن بن مهدي

الرسالة أولى الثمرات

وكانت أولى ثمرات هذا الدور الخصب؛ هي تلك الرسالة التي كتبها إلى عبد الرحمن بن مهدي، الذي كتب للشافعي أن يضع له كتاباً فيه معاني القرآن، ويجمع فنون الأخبار فيه، وحجة الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب الرسالة.

والأرجح أن كتابته لها كانت بمكة، ولكن بعض الروايات تذكر أنها كانت ببغداد، وعلى أي حال فهي ثمرة دراسته بالبيت الحرام.

لا بد أن تؤتي هذه الدراسة أُكُلها، فكانت أولى ثمراتها كتاب الرسالة الذي وضعه الشافعي، جواباً لطلب عبد الرحمن بن مهدي أن يؤلف كتاباً جامعاً لأصول الإسلام.

الأصول الجديدة

ثم قدم الشافعي بتلك الدراسة إلى بغداد، ونشرها في حلقاته، فكانت أمراً جديداً عندهم، حتى لقد قال الكرابيسي: ما كنا ندري ما الكتاب، ولا السنة، ولا الإجماع (أي أصول الفقه المستنبطة منها)، حتى سمعنا الشافعي يقول: الكتاب والسنة والإجماع.

وأقام في بغداد هذه المرة نحو ثلاث سنوات، كانت هي الدور الثاني من أدوار اجتهاده، وفيها أخذ يستعرض آراء الفقهاء الذين عاصروه وتبعوه، بل آراء الصحابة والتابعين، يعرضها على ما وصل إليه من أصول كلية، ويرجح بينها على مقتضى هذه الأصول، ثم يدلي بآرائه التي يراها تنطبق على أصوله.

وقد التقى الشافعي في هذا الدور بتلاميذ آخرين، تلقوا عنه ذلك الفقه الذي كان دراسة عميقة لآراء الفقهاء، ثم استخلاص خيرها، أو إبداء آراء جديدة منها.

وضع الشافعي الأصول الكلية في مكة، ثم قدم بغداد وأخذ يعرض آراء الفقهاء على هذه الأصول، ويدلي بآرائه فيها، وبيّن معنى أصول الفقه من الكتاب والسنة والإجماع.



دور التمحيص وتعديل الرسالة

وأخيراً انتقل الشافعي إلى مصر سنة 199هـ، وبقي فيها نحواً من أربع سنوات، وافته بعدها المنية بأرضها، وفيها كان الشافعي قد تكامل نموه، ونضجت آراؤه واختبر العمل بها، فأنتج الاختبار فكراً جديداً، ثم رأى في مصر ما لم يكن قد رآه من قبل، رأى فيها عرفاً وحضارة، وآثاراً للتابعين، فأخذ يدرس آراءه السابقة كلها في ضوء ما هدته إليه التجربة والسن والبلد الذي نزل فيه، فكتب رسالته في الأصول كتابة جديدة، زاد فيها، وحذف منها، وأبقى لب رسالته القديمة، ودرس آراءه في الفروع فعدل عن بعضها إلى جديد لم يقله، وكان له بذلك قديم قد رجع عنه، وجديد قد اهتدى إليه، وقد يتردد بين الجديد والقديم، فيذكر الرأيين من غير أن يرجع عن أولهما، وهكذا، فكان هذا الدور دور التمحيص، درس فيه آراءه كلها، ودرس أصوله ناقداً لها، فاحصاً كاشفاً، ودوّن ما انتهى إليه من دراسته، فدوّن رسالته، وكتب مسائل كثيرة له، وأملى أخرى، وروى عنه أصحابه جملة آرائه في تلك الفترة، ونقلوا عنه خلافاته مع غيره من الفقهاء، وبذلك لم يمت الشافعي إلا وقد ترك تركة مثرية من الفقه والاستنباط.

مصر بلد يعج بالحياة والحركة والحضارة، فعندما انتقل إليها الشافعي وكان قد تكامل نموه ونضجت آراؤه، أخذ يدرس آراءه وأصوله كلها ناقداً لها، فحذف منها وزاد فيها، ودوّن ما انتهت إليه دراسته وروى عنه أصحابه جملة آرائه، وبذلك لم يمت الشافعي إلا وقد ترك ثروة عظيمة من الفقه والاستنباط.

2 مؤلفات الشافعي

كان للإمام الشافعي مؤلفات كثيرة، لم تُعرف لإمام قبله، في الأصول والفروع، والفقه، وأدلته، بل في التفسير والأدب، يقول ابن زولاق: صنّف الشافعي نحواً من مائتي جزء، ويقول المروزي في خطبة تعليقه: قيل: إن الشافعي رحمه الله صنّف مائة وثلاثة عشر كتاباً في التفسير والفقه والأدب وغير ذلك.

رحم الله الشافعي، لم يُعرف لإمام قبله ما عُرف له من وفرة العلم وكثرة المؤلفات، فلم يترك علماً إلا وألّف فيه، فألّف في الفقه وأصوله، وفي التفسير والأدب، حتى بلغت مؤلفاته نحواً من مائتي جزء.

تأليف الكتب

فبعد أن استقل الإمام الشافعي بطريقته في الاجتهاد والبحث والفتيا؛ أخذ يؤلف الكتب، ويدوِّن المبادئ فيها التي وضعها للاستنباط، وآراءه في المسائل المختلف فيها، ثم يدون السنن، والخلاف بين الصحابة، ويختار بين الآراء المختلفة رأياً يرجحه ويعتنقه.

ولم يُعرف له تأليف ذكر أنه ألفه بمكة، ولم يذكر أحد المؤرخين شيئاً عن بعض مصنفاته أنه كتب بمكة، إلا إذا صحَّ أنه كتب الرسالة إلى عبد الرحمن بن مهدي وهو بمكة، أما بعد مجيئه إلى العراق سنة 195هـ فإنه قد ذكرت له مؤلفات كثيرة بها.

أخذ الشافعي يؤلف الكتب، ويدوّن المبادئ التي وضعها بعد أن استقلّ بطريقته في الاجتهاد والبحث، ولم يُعرف عنه أنه كتب شيئاً منها بمكة، إلا إذا صحّ أنه كتب بها الرسالة إلى عبد الرحمن.

إعلان المذهب

لقد بدأ رحمه الله تعالى تأليفه حين قصد إلى العراق للمرة الثانية، يعلن مذهبه، وينشر اجتهاده، وينصر السنة، ويرد على من خالفها، وذلك سنة 195هـ، حين اجتمع من حوله المحدِّثون يفيدون من علمه وفقهه واجتهاده، ويستنصرون بعقله وحجته وبيانه، قال الحميدي: "كنا نريد أن نرد على أهل الرأي فلا نحسن حتى جاءنا الشافعي ففتح لنا".

والظاهر أن أول كتاب وضعه في العراق كتاب "الحجة" وفيه مذهبه القديم، إذا قلنا: إن كتاب "الرسالة" وضع في مكة استجابة لطلب الإمام عبد الرحمن بن مهدي قبل قدومه إلى العراق المرة الثانية، ورأي الفخر الرازي أنه صنفه في العراق، فتكون الرسالة على هذا أول كتاب له صنفه في العراق، ثم بعده كتاب "الحجة".

حين قدم الشافعي إلى العراق للمرة الثانية، بدأ يعلن مذهبه، وينشر اجتهاده، فاجتمع حوله المحدثون والفقهاء يفيدون من علمه، وكان أول كتاب وضعه في العراق: "الحجة".

الدافع إلى تأليف كتاب "الحجة"

كان الدافع إلى تأليفه الرد على أصحاب الرأي، قال الشافعي: "اجتمع عليّ أصحاب الحديث، فسألوني أن أضع على كتاب أبي حنيفة، فقلت: لا أعرف قولهم، حتى أنظر في كتبهم، فأمرت، فكتبت لي كتب محمد بن الحسن، فنظرت فيها سنة، حتى حفظتها، ثم وضعت الكتاب البغدادي" -يعني الحجة- وهو كتاب اجتهادي، جُمع فيه ما أفتى به، ويبحث في جميع ألوان الفقه مع الأدلة، ومن مباحثه الرد على المخالفين، فهو بذلك مجموعة كتب، وصار هذا الكتاب متداولاً بين العلماء، وممن درس على هذا الكتاب وتلقى منه: الإمام أحمد بن حنبل، والزعفراني، وأبو ثور، والكرابيسي.

والشافعي رحمه الله من عادته أنه يؤلف في مواضيع محددة، كاختلاف الحديث، وجماع العلم، وإبطال الاستحسان، وغيرها، ثم جُمعت هذه المؤلفات في كتاب.

وعُرف عن الشافعي أنه قد يؤلف من حفظه حين لا تتوفر المراجع، يقول الربيع: "ألّف الشافعي هذا الكتاب -يعني المبسوط- حفظاً، لم يكن معه كتاب".



الإمام الشافعي يقرأ على الناس كتابه الجديد (المبسوط)

قائمة كتب الشافعي

جاء في كتاب معجم البلدان قائمة طويلة بأسماء الكتب التي ألفها الإمام الشافعي وهي:

كتاب الطهارة، كتاب مسألة المني، كتاب استقبال القبلة، كتاب الإمامة، كتاب إيجاب الجمعة، كتاب صلاة العيدين، كتاب صلاة الكسوف، كتاب صلاة الاستسقاء، كتاب صلاة الجنائز، كتاب الحكم في تارك الصلاة، كتاب الصلاة الواجبة، والتطوع والصيام، كتاب الزكاة الكبير، كتاب زكاة الفطر، كتاب زكاة مال اليتيم، كتاب الصيام الكبير، كتاب المناسك الكبير، كتاب المناسك الأوسط، كتاب مختصر المناسك، كتاب الصيد والذبائح، كتاب البيوع الكبير، كتاب الصرف والتجارة، كتاب الرهن الكبير، كتاب الرهن الصغير، كتاب الرسالة، كتاب أحكام القرآن، كتاب اختلاف الحديث، كتاب جماع العلم، كتاب اليمين مع الشاهد، كتاب الشهادات، كتاب الإجارات الكبير، كتاب كري الإبل والرواحل، كتاب الإجارات إملاءً، كتاب اختلاف الأجير والمستأجر، كتاب الدعوى والبينات، كتاب الإقرار والمواهب، كتاب رد المواريث، كتاب بيان فرض الله عز وجل، كتاب صفة نهي النبي ﷺ، كتاب النفقة على الأقارب، كتاب المزارعة، كتاب المساقاة، كتاب الوصايا الكبير، كتاب الوصايا بالعتق، كتاب الوصية للوارث، كتاب وصية الحامل، كتاب صدقة الحي عن الميت، كتاب المكاتب، كتاب المدبر، كتاب عتق أمهات الأولاد، كتاب الجناية على أم الولد، كتاب الولاء والحلف، كتاب التعريض بالخطبة، كتاب الصداق، كتاب عشرة النساء، كتاب تحريم ما يجمع من النساء، كتاب الشغار، كتاب إباحة الطلاق، كتاب العدة، كتاب الإيلاء، كتاب الخلع والنشوز، كتاب الرضاع، كتاب الظهار، كتاب اللعان، كتاب أدب القاضي، كتاب الشروط، كتاب اختلاف العراقيين، كتاب اختلاف علي وعبد الله، كتاب سير الأوزاعي، كتاب الغضب، كتاب الاستحقاق، كتاب الأقضية، كتاب إقرار أحد البنين بأخ، كتاب الصلح، كتاب قتال أهل البغي، كتاب الأسارى والغلول، كتاب القَسامة، كتاب الجزية، كتاب القطع في السرقة، كتاب الحدود، كتاب المرتد الكبير، كتاب المرتد الصغير، كتاب الساحر والسحرة، كتاب القراض، كتاب الأيمان والنذور، كتاب الأشربة، كتاب الوديعة، كتاب العمري، كتاب بيع المصاحف، كتاب خطأ الطبيب، كتاب جناية معلم الكتاب، كتاب جناية البيطار والحجام، كتاب اصطدام الفرسين والنفسين، كتاب بلوغ الرشد، كتاب اختلاف الزوجين في متاع البيت، كتاب صفة النفس، كتاب فضائل قريش والأنصار، كتاب الوليمة، كتاب صول الفحل، كتاب الضحايا، كتاب البحيرة والسائبة، كتاب قسم الصدقات، كتاب الاعتكاف، كتاب الشفعة، كتاب السبق والرمي، كتاب الرجعة، كتاب اللقيط والمنبوذ، كتاب الحوالة والكفالة، كتاب كري الأرض، كتاب التفليس، كتاب اللقطة، كتاب فرض الصدقة، كتاب قسم الفيء، كتاب القرعة، كتاب صلاة الخوف، كتاب الديات، كتاب الجهاد، كتاب جراح العمد، كتاب الخرص، كتاب العتق، كتاب عمارة الأرضين، كتاب إبطال الاستحسان،

كتاب العقول، كتاب الأولياء، كتاب الرد على محمد بن الحسن، كتاب صاحب الرأي، كتاب سير الواقدي، كتاب حبل الحبلة، كتاب خلاف مالك والشافعي، كتاب قطاع الطريق.

ومعظم هذه الكتب قد جمع فيما بعد في كتاب "الأم" وهي من رواية الربيع بن سليمان المرادي وسماعه.

لم يترك الشافعي باباً من أبواب الفقه إلا وكتبه وألّف فيه، وكذلك كتب المسائل التي خالف فيها الإمام مالكاً، وكتب كتاباً في الرد على محمد بن الحسن، وقد جمعت معظم هذه الكتب في كتاب "الأم".



الشافعي يملي على تلميذه الربيع كتابه العظيم «الأم»

وسنتكلم بشيء من التفصيل عن كتابين هما من أعظم كتب المذهب الشافعي، ومن أعظم موروثاتنا عن الشافعي:

كتاب "الأم"

هذا الكتاب يضم فقه الشافعي ومذهبه، وهو كتاب كبير يقع في سبعة مجلدات مطبوعة، فيه دقة وتفاصيل وشمول.

حقيقة هذا الكتاب أنه مجموعة كتيبات ومسائل، ألّفها الإمام الشافعي أو أملاها، فلما استقرّ أخيراً في مصر؛ جمع كل هذه المؤلفات، وأملاها على صاحبه وتلميذه وخادمه الربيع بن سليمان؛ ولذلك سُمِّي هذا الكتاب: "الأم"؛ لأنه بالنسبة لبقية كتب الشافعي كالأم بالنسبة لأولادها، هو المرجع لكل قضايا الفقه الشافعي.

كتاب "الأم" من أعظم كتب الشافعي، وهو كتاب كبير يضم مجموعة كتيبات ومسائل ألّفها الشافعي وأملاها، وهو المرجع لكل قضايا الفقه الشافعي.

منهج كتاب الأم

هذا الكتاب في نظامه مؤلف على منهج أبي حنيفة من قبل، وأبو حنيفة هو أول من دوّن في الفقه خشية أن يضيع، فبدأ بالطهارة، ثم الصلاة، فهي بداية العمل، ثم انتقل إلى بقية العبادات، ثم المعاملات فالمواريث، ...إلخ.

ومنهج كتاب الأم يشبه منهج أبي حنيفة بشكل كبير، والإمام الشافعي يقرُّ بذلك، ويقول: "الناس أو العلماء عيالٌ على أبي حنيفة في الفقه".

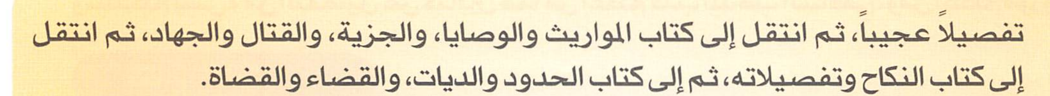
وقسّم الشافعي كتاب "الأم" إلى أبواب كبيرة، وسمّى كل باب من هذه الأبواب كتاباً.

فبدأ بكتاب الطهارة، ثم كتاب الصلاة، وفصّل فيهما تفصيلاً كبيراً.

ثم كتاب الزكاة، فتناولها بدقة وتفصيل وشمول، لم يكد يترك أمراً من أمور الزكاة إلا وكتبه.

ثم انتقل إلى كتاب الصيام، ومنه إلى الحج بتفصيل شديد، وتكلم فيه عن تحريم الصيد على المُحرم، وموضوع الصيد والذبائح.

ثم انتقل إلى قضايا النذر، ثم انتقل إلى كتاب رئيسي آخر هو البيوع، فتكلم عن أنواع البيوع، والربا، وأحكامه، والفرق بينهما، وأنواع البيوع الحلال، وأنواع البيوع الحرام، وفصّل فيه



تفصيلاً عجيباً، ثم انتقل إلى كتاب المواريث والوصايا، والجزية، والقتال والجهاد، ثم انتقل إلى كتاب النكاح وتفصيلاته، ثم إلى كتاب الحدود والديات، والقضاء والقضاة.

فنحن نتحدث عن فقه شامل عجيب، نتحدث عن تغطية كاملة لما يحتاجه المسلم من الناحية التشريعية، كتاب فقه شمولي دقيق، كنز من الكنوز التي تركها لنا الإمام الشافعي، وصار مرجعاً للعلماء يرجعون إليه ويعتمدون عليه.

كتاب الأم، هو كتاب فقه شمولي، فيه تغطية كاملة لما يحتاجه المسلم من الناحية التشريعية، نهج في تقسيمه منهج أبي حنيفة، فقسمه إلى أبواب، وسمّى كل باب كتاباً، وبدأ بكتاب الطهارة، ثم الصلاة، ثم الصيام، ثم الزكاة، ثم الحج. وفصّل في كل كتاب تفصيلاً دقيقاً شاملاً، يندر مثيله، ثم تابع بقية أبواب الكتاب، فصار مرجعاً للعلماء يعتمدون عليه ويرجعون إليه.

كتاب "الرسالة"

أما أشهر كتب الشافعي على الإطلاق، ليس من باب الحجم، فهو لا يُقارن بحجمه مع "الأم"، لكن من ناحية الموضوع والإبداع: فهو كتاب "الرسالة"، وهو كتاب في أصول الفقه، ويعتبر أول المؤلفات في هذا العلم.
"الأم" من أوثق كتب الفقه وأغناها بالمسائل وأوسعها في القضايا، وتفصيل الفروع، لكن هناك كتب كثيرة سبقت الإمام الشافعي، ولحقت الإمام الشافعي، وفيها أيضاً تفصيل كبير، لكن كتاب الرسالة يمثل نمطاً جديداً، ويختلف تماماً عن كل ما كُتب قبله، وصار العلماء يعتمدون عليه إلى هذا اليوم.

"الرسالة" طراز فريد في المنهج العلمي، كيفية الاستنباط للأصول التي يعتمد عليها الفقه، فجعله أصلاً للفقه، وللشافعي عدة كتب في الأصول: أحكام القرآن، اختلاف الحديث، إبطال الاستحسان، جماع العلم، كتاب القياس، لكن الكتاب الرئيسي هو هذا الكتاب: "الرسالة".

"الأم من أوثق كتب الفقه وأغناها، لكن هناك كتب سبقتها ولحقت بها في هذا المجال، أما كتاب "الرسالة" فهو طراز فريد في المنهج العلمي، في كيفية استنباط أصول الفقه، فصار مرجعاً للعلماء إلى هذا اليوم، وللشافعي عدة كتب في الأصول، كأحكام القرآن... وغيرها.

تأليف الرسالة:

ألّفها مرتين؛ مرة في مكة على الأرجح، وكان ما زال شاباً، ثم أعاد النظر فيها مرة ثانية في مصر، في أواخر عمره، والرسالة الأولى تُسمّى الرسالة القديمة، والرسالة الثانية تُسمّى الرسالة الجديدة، وتُسمّى كذلك الرسالة المصرية.

كتاب الرسالة له نسختان: الرسالة القديمة والرسالة الجديدة، لأن الشافعي ألفها مرتين، مرة في مكة وهو شاب، والثانية في مصر في أواخر عمره.

قصة "الرسالة"

أن عبد الرحمن بن مهدي، وهو من كبار العلماء، أرسل للشافعي بأن يضع كتاباً فيه معاني القرآن، ويجمع فنون الأخبار، وحجة الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن، فأجاب الشافعي برسالة يرد فيها على هذا الطلب، وسمى الكتاب بناء على ذلك "الرسالة".

فلما وصل هذا الكتاب إلى الإمام الجليل عبد الرحمن بن مهدي قال: "لما نظرت الرسالة للشافعي أذهلتني"، ويقول: "رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح، فإني لأكثر الدعاء له".

والذي ينظر في كتاب الرسالة يلمس قدرة عقلية غير عادية للإمام الشافعي رحمه الله تعالى، ومنهجاً فكرياً عميقاً، وبراعة في الحوار، وحسن استنباط، ودقة في الاستشهاد بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وبياناً بلاغياً بما وهبه الله من قدرة على البلاغة، بالإضافة إلى تمكنه الشديد في الأحاديث الشريفة، واستحضاره العجيب للآيات.



الإمام عبد الرحمن بن مهدي

كان كتاب "الرسالة" رداً على طلب عبد الرحمن بن مهدي من الشافعي أن يضع له كتاباً فيه معاني القرآن، وحجة الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ، وفنون الأخبار، فلما قرأه عبد الرحمن أذهله، وكل من يقرؤه بعده سيذهله؛ لما يرى فيه من قدرة عقلية غير عادية، وبراعة في الحوار، وحسن استنباط، ودقة في الاستشهاد.

منهج كتاب الرسالة

يبدأ هذا الكتاب بمقدمة، واستهلال، فيه حمدٌ لله تعالى وتمجيد، ودعوات، واستغفار، واستحضار لأحوال الناس قبل رسالة محمد ﷺ، وكيف كانوا أهل كتاب، وعَبَدة أصنام، وعَبَدة نجوم، ثم جاء محمد ﷺ نبياً ورسولاً، يهدي إلى الحق، وسبل السلام، وجعله اللهُ سبحانه وتعالى مفضّلاً على كل الخلق، وبعثه أولاً لعشيرته الأقربين، وبيّن نزول القرآن الكريم، وكيف هدى العباد، وأتبع ذلك بالحديث عن العلم وطبقات الناس في هذا العلم، وموقعهم من هذا العلم، ودرجات الناس بالنسبة للعلم، وختم هذه المقدمة بآيات محكمات ليستدل على ما يقصده، فمنها قوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)(النحل: من الآية89).

ومنها قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى:52).

فبيّن في هذه المقدمة الجليلة عظمة القرآن الكريم ومكانته، وكيف أنه حجة على باقي العباد، واستطرد استطراداً عظيماً في هذا الأمر، وبعد هذه المقدمة التي زينها بالآيات القرآنية الجليلة، ووضع كل آية في موضعها المناسب؛ انطلق لمعالجة موضوعات هذا الكتاب فبدأ بهذا تأليفاً من نمط جديد، بدأ بشيء غريب، فبدأ بالحديث عن البيان، والمقصود به البيان الديني، كيف أن الله سبحانه بيّن لخلقه ما يجب عليهم من أوامر ونواهٍ، وأحكام، وما سنّه النبي ﷺ؛ مما جعل الاجتهاد في هذه الأمور فرضاً على المسلمين، فيجب أن نبحث ونجتهد، كيف نحيا حياة سليمة على منهج الشرع الكريم، وكيف تستقيم حياتنا على دين الله عز وجل، ويضرب لذلك الأمثال من القرآن الكريم، وكل مَثَل يرتبط بموضوع من المواضيع، وينتقل للاستشهاد بالآيات الكريمة، وبيّن أن شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان، وما يريد الله من العباد واضح بيّن، وتحدّث عن الأحكام التي أُلغيت، وبيّن الأحكام التي كانت عامة وخُصصت، أو مظهرها عام ويراد بها الخصوصية، أو العكس ما نزل بشأن إنسان معين ويراد به كل الناس، ثم انتقل إلى قضية الناسخ والمنسوخ، هل هناك أُلغيت في القرآن الكريم، وهل هناك آية تلغي حكماً في آية أخرى، وبيّن مسألة دقيقة جداً؛ أن الحكم الذي في القرآن لا يلغيه إلا قرآن مثله، لا تلغيه سنة، فالسنة لا تكون ناسخة للقرآن، فهي تفسر القرآن وتخصصه، لكن لا تلغيه، ثم فصّل في مزيد من القضايا، فتكلم عن حديث النبي ﷺ وبيّن بدراسة وافية كيف نتعامل مع حديث النبي ﷺ، وتكلم كيف يُعرف الحديث الصحيح من الضعيف، وبيّن كيف تُستنبط الأحكام من الحديث، وبدأ يدخل في أعماق فهم الحديث النبوي، ثم انتقل إلى أبواب عظيمة، فتكلم عن باب العلم، وباب الإجماع، وباب القياس، وباب الاجتهاد، وباب الاستحسان، وباب الخلاف.

وترتيب هذا الكتاب شارك فيه الربيع بن سليمان الذي أملي عليه هذا الكتاب.

الرسالة أول مؤلَّف في أصول الفقه، وهي خلاصة فهم الشافعي ومذهبه، بدأ فيها بمقدمة عظيمة، تحدث فيها عن أحوال أهل الكتاب، ثم عن بعثة النبي ﷺ، وعن العلم ومواقع الناس منه، وأفاض في الحديث عن القرآن ومكانته، ثم انطلق لمعالجة موضوعات الكتاب، فبدأ بالحديث عن البيان، بيان الله، وبيان رسوله، وبيّن أن شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان، ثم تحدث عن الأحكام، وعن الناسخ والمنسوخ، وتكلم عن الحديث، وتحدث عن أبواب أخرى، فأبدع وأجاد، وأتى بشيء لم يسبقه إليه غيره.

رحم الله الإمام الشافعي الذي أصّل لنا علوم الفقه.



3 مصادر الفقه الشافعي

1 الكتاب والسنة

استقى الشافعي فقهه من خمسة مصادر، وقد نص عليها في كتابه "الأم"، فقال: "العلم طبقات شتى

الأولى: الكتاب والسنة إذا ثبتت،

ثم الثانية: الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة،

والثالثة: أن يقول بعض أصحاب رسول الله ﷺ قولاً؛ ولا نعلم له مخالفاً منهم،

والرابعة: اختلاف أصحاب النبي ﷺ في ذلك،

الخامسة: القياس، ولا يصار إلى شيء غير الكتاب والسنة، وهما موجودان، وإنما يؤخذ العلم من أعلى".

نصَّ الشافعي في كتابه "الأم" على المصادر التي استقى منها فقهه، وجعلها خمسة مصادر: الكتاب، والسنة، ثم الإجماع، ثم قول الصحابة متفقين، ثم اختلافهم، ثم القياس.



الينبوعان الأساسيان

وعلى ذلك نرى أن الشافعي يعتبر المرتبة الأولى من مراتب الاستنباط هي النصوص، وهي الكتاب والسنة، ويعتبرهما المصدر الوحيد للفقه الإسلامي، وغيرهما من المصادر محمول عليهما، فالصحابة في آرائهم متفقين أو مختلفين لا يمكن أن يكونوا مخالفين للكتاب أو السنة، بل هما الينبوعان لهذه الآراء بالنظر فيهما أو بالحمل عليهما، وكذلك الإجماع لا يمكن أن يكون إلا معتمداً عليهما، غير خارج عنهما، فالعلم يؤخذ دائماً من الأعلى وهما الأعليان.

المرتبة الأولى من مراتب الاستنباط عند الشافعي هي النصوص، وهي الكتاب والسنة، وكل ما عداهما محمول عليهما، غير خارج عنهما، فالعلم يؤخذ من أعلى، وهما الأعليان.

الإمام عبدالرحمن بن مهدي

الكتابِ أولاً

وقد وجدنا الفقهاء من بعد الشافعي يذكرون الكتاب أولاً، ثم السنة ثانياً، وكذلك كان يقرر أبو حنيفة من قبل الشافعي: أنه يأخذ بالكتاب، فإن لم يجد فبالسنة وكذلك روي عن معاذ بن جبل عندما سأله النبي ﷺ عما يقضي به، فقد قرر أنه يقضي بكتاب الله، فإن لم يجد فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم يجدهما اجتهد رأيه.

الكتاب أولاً، ثم السنة ثانياً، هذا ما قرره أبو حنيفة قبل الشافعي، والفقهاء من بعده، وهو ما روي عن معاذ بن جبل عندما سأله النبي ﷺ عما يقضي به.

فرعٌ هو أصلها

ونظر الشافعي إلى الفقه فوجد القرآن قد اشتمل على بيان الكليات، وكثير من الجزئيات، والسنة أتمت بيان القرآن، وفصّلت ما أجمل، ووضحت بعض ما قد يدق على بعض العقول إدراكه، فإن السنة مبينة للكتاب في كل ما جاء به من مسائل كلية، ومفصلة لمجمله، ولا يمكن أن يكون لها البيان إلا إذا كانت في مرتبة المبيِّن، وقد كان كثير من الصحابة ينظرون ذلك النظر.

وجَعْل العلم بالسنة في مرتبة العلم بالقرآن عند استخراج أحكام الفروع لا يتنافى مع كون القرآن أصل هذا الدين وعموده، وحجته ومعجزة النبي ﷺ، وأن السنة فرع هو أصلها، لذلك استمدت قوتها منه، وإنما كانت في مرتبته عند المستنبط للأحكام.

اشتمل القرآن على بيان الكليات وكثير من الجزئيات، وجاءت السنة فأتمت بيان القرآن، فصّلت ما أجمله، ووضحت ما يصعب إدراكه، وهذا لا يتنافى مع كون القرآن أصل هذا الدين وعموده، وأن السنة فرع هو أصلها، وإنما كانت في مرتبته عند المستنبط للأحكام.

أمــور كليــة

ولقد أيّد كثير من الفقهاء الذين جاؤوا بعد الشافعي نظره، فقد قال الشاطبي في الموافقات: "لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون النظر في شرحه وبيانه وهو السنة، لأنه إذا كان كلياً وفيه أمور كلية: كما في شأن الصلاة والزكاة والحج والصوم، ونحوها، فلا محيص عن النظر في بيانه".

وبعد ذلك ينظر في تفسير السلف الصالح له، إن أعوزته السنة، فإنهم أعرف من غيرهم، وإلا فمطلق الفهم العربي ممن حصله فيما أعوز من ذلك.

وإن الشافعي مع اعتباره القرآن والسنة درجة واحدة في الاستدلال؛ يقرر أن القرآن لا ينسخ السنة، وأن السنة لا تنسخ القرآن، ويقرر أنه إذا نسخ القرآن السنة فلا بدَّ من دليل من السنة يبين النسخ.

في القرآن أمور كلية كالصلاة والصيام... وغيرها، فلا يكفي في الاستنباط الاقتصار على القرآن، بل لا بدَّ من النظر في شرحه وبيانه وهو السنة، ويقرر الشافعي أن السنة لا تنسخ القرآن، وأن القرآن لا ينسخ السنة إلا بدليل من السنة يبين النسخ.

2 الإجماع

قرر الشافعي أن الإجماع حجة في الدين، وعرّفه: بأن يجتمع علماء العصر على حكم شرعي عملي عن دليل يعتمدون عليه، وهو يقول في ذلك: "لستُ أقول ولا أحد من أهل العلم: هذا مجتمع عليه إلا لما تلق عالماً إلا قاله لك، وحكاه عمن قبله، كالظهر أربعاً وتحريم الخمر، وما أشبه ذلك".

وأول إجماع يعتبره الشافعي هو إجماع الصحابة، ولا يوجد في كلامه ما يدل على أن إجماع غيرهم لا يكون حجة.

الإجماع هو: أن يجتمع علماء العصر على حكم شرعي عملي عن دليل يعتمدون عليه، وهو حجة عند الشافعي، وأول إجماع يعتبره الشافعي هو إجماع الصحابة.

مرتبة الإجماع

إن الشافعي يؤخر الإجماع في الاستدلال عن الكتاب والسنة، فإذا كان الأمر المجتمع عليه يخالف الكتاب والسنة فلا حجية فيه، وفي الحق: إنه لا يمكن أن يكون إجماع في أمر يخالف الكتاب والسنة.

مرتبة الإجماع في الاستدلال تأتي بعد الكتاب والسنة، ولا إجماع في أمر يخالف الكتاب والسنة.

أنواع الإجماع

الإجماع نوعان:

النوع الأول: إجماع على النصوص، وتواتر ذلك الإجماع وهو الإجماع على الأمور التي تعدّ إطار الإسلام، والتي يقول العلماء: إنها عُلمت من الدين بالضرورة، وذلك ككون الصلوات خمساً، وعدد ركعاتها، وعلى مناسك الحج، وعلى الزكوات، وغير ذلك.

فإنها مسائل مجمع عليها لتضافر النصوص والأخبار على إثباتها، وتواتر السنة بها، وإجماع العلماء في هذه الحال هو إجماع على النصوص وفهمها، وأخبار صادقة وتعرف أحكامها.

الإجماع نوعان: الأول: إجماع على النصوص، وهي ما عُلم من الدين بالضرورة، ككون الصلوات خمساً، وعدد ركعاتها... وغير ذلك.

النوع الثاني: هو الإجماع على أحكام هي موضع مناقشات بين العلماء، كإجماع الصحابة على رأي عمر ﷺ؛ وهو منع تقسيم الأراضي المفتوحة بين الغانمين، وهذا إجماع قد اعتمد على النص، ولا يعد منكره كافرا؛ كمن ينكر الصلوات المكتوبة خمساً، وكمن ينكر عدد ركعاتها، وهكذا...

وهذا النوع من الإجماع بلا ريب يؤخر الاستدلال به على الكتاب والسنة.

النوع الثاني: هو الإجماع على أحكام هي موضع مناقشات بين العلماء، كإجماع الصحابة على رأي عمر في منع تقسيم الأراضي المفتوحة بين الغانمين.

إجماع أهل المدينة

ما كان الشافعي يعتبر إجماع أهل المدينة إجماعاً، وبذلك خالف شيخه مالكاً ﷺ، ولكنه من الناحية العملية يقرر أن أهل المدينة لا يجمعون على أمر إلا إذا كان مجمعاً عليه في البلاد الإسلامية، ككون الظهر أربعاً، والمغرب ثلاثاً، والفجر اثنتين، أما ما يجري الخلاف بين الناس؛ فإنه يجري بين أهل المدينة، وبذلك يلتقي من الناحية العملية مع شيخه مالك، وإن خالفه من الناحية النظرية.

الشافعي لا يعتبر إجماع أهل المدينة وحدهم إجماعاً، لكنه يقرر أنهم لا يجمعون على أمر إلا إذا كان مجمعاً عليه في البلاد الإسلامية، ككون الظهر أربعاً.

تمحيص الشافعي في الإجماع

كان الشافعي رحمه الله تعالى إذا ناظر أحداً وادعى الإجماع فيه؛ أنكر وجود الإجماع، حتى ادعى عليه أنه ينكره.

والحقيقة أن ادعاء الإجماع كثر في عصر الأئمة المجتهدين، حتى إنه كان يُدعى الإجماع في مسائل كثيرة لم ينعقد عليها الإجماع، وكان أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ينكر دعاوى الأوزاعي في إجماعات ادعاها وكان إنكاره بعبارات لاذعة في كثير من الأحيان.

وفي الجملة: أن الشافعي أخذ بالإجماع على أنه حجة، ولكنه وقف مجابهاً إدعاء الإجماع ليمحص القول فيه.

3 أقوال الصحابة

ادعى بعض كتاب الأصول من الشافعية أن إمامهم كان يأخذ أقوال الصحابة في مذهبه القديم، ولا يأخذ بها في مذهبه الجديد، ومذهبه القديم هو ما اشتملت عليه رواية الزعفراني لكتبه بالعراق، ومذهبه الجديد هو رواية الربيع بن سليمان المرادي المؤذن لكتبه بمصر.

ولكنا نجد في كتابه "الرسالة" برواية الربيع بن سليمان أنه كان يأخذ بأقوال الصحابة، وبذلك يتبين أنه كان يأخذ بقول الصحابي في الجديد، كما كان يأخذ به في القديم، بالاتفاق، وذلك هو ما نرى أنه الحق.

المصدر الثالث من مصادر الشافعي أقوال الصحابة، وقد أخذ بها في فقهه الجديد، كما أخذ بها في القديم خلافاً لمن زعم غير ذلك.

تقسيم رأي الصحابي

وخلاصة قول الشافعي بالنسبة لرأي الصحابي أنه يقسمه إلى ثلاثة أقسام:

أولها: ما يكونون قد أجمعوا عليه، كإجماعهم على ترك الأراضي المفتوحة بين أيدي زراعها، وهذا حجة لأنه إجماع، فهو داخل في عمومه، ولا مقال لأحدٍ فيه.

ثانيها: أن يكون للصحابي قول، ولا يوجد غيره، خلافاً أو وفاقاً، وقد كان يأخذ به رضي الله عنه، وقد جاء في كتاب الرسالة في مناظرة له مع بعض مناظريه، قال مناظره: أفرأيت إذا قال الواحد منهم القول لا يحفظ عن غيره منهم في موافقة أو خلاف، أتجد لك حجة باتباعه في كتاب أو سنة، أو أمر أجمع الناس عليه؟ قلت: ما وجدنا في هذا كتاباً ولا سنة ثابتة، ولقد وجدنا أهل العلم يأخذون بقول واحدهم مرة، ويتركونه أخرى... قال: فإلى أي شيء صرت؟ قلت: إلى اتباع قول واحدهم إذا لم أجد كتاباً ولا سنة، ولا إجماعاً يحكم بحكمه... وقلّ ما يوجد من أقوال الواحد منهم قول لا يخالفه فيه غيره.

ثالثها: ما يختلف فيه الصحابة، وهو في هذا القسم كأبي حنيفة، يختار من أقوالهم، ولا يقول قولاً يخالف كل أقوالهم، ويتخير من أقوالهم ما يكون أقرب إلى الكتاب والسنة أو الإجماع، أو يؤيده قياس أقوى.

قسّم الشافعي رأي الصحابي ثلاثة أقسام، ما يكونون قد أجمعوا عليه، وهذا لا مقال لأحدٍ فيه، وأن يكون للصحابي قول، ولا يوجد غيره، خلافاً أو وفاقاً، وقد كان الشافعي يأخذ به، الثالث: ما يختلف فيه الصحابة، فيختار من أقوالهم، ولا يقول قولاً يخالف كل أقوالهم.

قول الشافعي في اختلاف الصحابة

وإليك ما قاله الشافعي في هذا المقام:

"ما كان الكتاب والسنة موجودين، فالعذر عمن سمعهما مقطوع إلا باتباعهما، فإن لم يكن ذلك؛ صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله ﷺ، أو واحد منهم، ثم كان قول أبي بكر، أو عمر أو عثمان، إذا صرنا فيه إلى التقليد أحب ألينا، وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة، فنتبع القول الذي معه الدلالة".

وإن هذا الكلام يستفاد منه أنه بالنسبة إلى الصحابة إذا اختلفوا، يتجه أولاً إلى اختبار أقربهما إلى الكتاب والسنة، ويندر ألا يجد أحد الأقوال أقرب في الدلالة إلى الكتاب والسنة ولذلك لم نجده اتجه إلى الأمر الثاني وهو التقليد، وهو في هذه الحال يختار الجانب الذي يكون فيه الإمام، فيختار الجانب الذي فيه أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان.

بيّن الشافعي في قوله هذا أنه إذا وجد نص في الكتاب أو السنة، فليس لأحد العدول عنه، فإن لم يوجد فإنه يختار من أقوال الصحابة أقربها إلى الكتاب والسنة، ويأخذ أولاً بقول الخلفاء الراشدين.

قول الإمام

ويعلل ذلك بقوله: "إن قول الإمام مشهور، يلزمه الناس، ومن لزم قوله الناس كان أشهر من أن يفتي الرجل أو النفر، وقد يأخذ بفتياه أو يدعها، وأكثر المفتين يفتون للخاصة في بيوتهم ومجالسهم، ولا تعنى العامة بما قالوا عنايتهم بما قال الإمام، وقد وجدنا الأئمة يبتدئون ويسألون عن العلم من الكتاب والسنة، فيما أرادوا أن يقولوا فيه، ويقولون فيخبرون بخلاف قولهم، فيقبلون من المخبر، ولا يستنكفون أن يرجعوا لتقواهم الله، وفضلهم في حالاتهم، فإذا لم يوجد عن الأئمة، فأصحاب رسول الله ﷺ في موضع الأمانة، فأخذنا بقولهم، وكان اتباعهم أولى من اتباع من بعدهم".

وإن هذا القول يدل على أنه يأخذ بأقوال الصحابة، بل يقلد الأئمة الراشدين إن لم يكن ما يرجح به دليل غيرهم على دليلهم.

قول الإمام مقدّم عند الشافعي على قول غيره، لأنه يفتي للعامة والخاصة، وربما أفتى بشيء، فيخبر بخلاف فتواه، فيرجع عن قوله، فإن لم يوجد عن الأئمة، فيأخذ بأقوال أصحاب رسول الله ﷺ، لأن أتباعهم أولى من اتباع من بعدهم.

4 القياس

القياس: هو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه لاشتراكه معه في علة الحكم..

ما ذُكر عن الشافعي فيه ناقلاً، ولم يكن مجتهداً إلا في إدراك معاني النصوص؛ أو ترجيح بعض الأقوال على بعض، كما كان الشافعي في ترجيحه بين أقوال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

أما القياس، فقد كان الشافعي فيه مجتهداً في إخراج الرأي الذي يمكن أن يسير عليه، ولذلك يقرر الشافعي أن القياس هو الاجتهاد، والقياس في نظر الشافعي كما يبدو من أمثلته الكثيرة التي ضربها يتفق مع تعريف علماء الأصول له: بأنه إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه لاشتراكه معه في علة الحكم.

القياس: هو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه، لاشتراكه معه في علة الحكم، فالقياس إذن هو الاجتهاد.

إثبات القياس

ويثبت الشافعي القياس على أنه أصل من الأصول الإسلامية؛ لمعرفة ما يدل عليه الكتاب والسنة من أحكام لم يرِد فيها نص صريح، ويبني ثبوت القياس على مقدمتين:

الأولى

أن كل أحكام الشريعة عامة، لا تفرض في حادثة دون حادثة، ولا في زمان دون زمان، وما دامت كذلك، فإنه لا بد من بيان الحكم الشرعي في كل ما ينزل بالإنسان، وفي كل ما يقع منه من حوادث، وهذه إما أن تثبت بالنص الصريح، وإما أن تحمل على نص، بقياس ما لم ينص عليه على ما جاء به نص، فيقول في ذلك ﷺ: "كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم، وعلى سبيل الحق ففيه دلالة موجودة، وعليه إذا كان بعينه حكم اتباعه، وإذا لم يكن فيه بعينه، طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد، والاجتهاد هو القياس".

وهذا الكلام معناه أن الشريعة عامة، فإن وجد النص الصريح اتبع، وإن لم يوجد اتجه المجتهد إلى تعرف الحكم بما تشير إليه أحكام الشريعة عامة، وربما يكون فيه دلالة من بعض النصوص توجه المجتهد إلى القياس على هذه النصوص.



الثانية

أنه يقسم علم الشريعة المتعلقة بالأحكام إلى قسمين: علم قطعي، يثبت بالنصوص القطعية التي تكون جلالتها على الأحكام قطعية، والقسم الثاني: علم ظني، يكتفي في العلم بالظن الراجح، ومن هذا القسم أخبار الآحاد، ومن هذا القسم أيضاً القياس، فهو يقرر إن فات العلم القطعي في النصوص، اتجه المجتهد إلى ما يكفي فيه الظن الراجح.

بنى الشافعي ثبوت القياس على مقدمتين: الأولى: أن أحكام الشريعة عامة، وأنه لا بدّ من بيان الحكم في كل ما ينزل بالإنسان، فإن كان فيه نص صريح اتبعه، وإن لم يكن فربما يكون فيه دلالة توجه المجتهد إلى القياس على هذه النصوص. والمقدمة الثانية: أن علم الشريعة قسمان: علم قطعي يثبت بالنصوص القطعية، وعلم ظني يكتفي بالظن الراجح، ومن هذا القسم أخبار الآحاد، والقياس.

العمل بالظاهر

ويقول: إن العلم الذي يوجب القطع هو العلم علم في الظاهر والباطن، أي لا يسع مسلماً أن ينكره ولا يعمل بموجبه، والذي يترتب عليه ظن راجح هو علم في الظاهر، فلا يجب في الباطن، بمعنى أنه يجب العمل به والخضوع له، وإذا أنكره لا يكفر المنكر، ويضرب رحمه الله تعالى الأمثلة الكثيرة على وجوب الأخذ في أحكام الشريعة، فالقاضي قد يقتل المتهم بشهادة الشهود، والأمارات الدالة على صدقهم من عدالة وتزكية، وظهور الصلاح عليهم، وعدم وجود ما يدفعهم إلى الكذب أو يرجحه، وقد يكونون مخطئين، أو كاذبين، ولكنه يعمل بما يظهر له، ويترك لله ما بطن، ومصلحة الجماعة في ذلك، لأنه لو ترك القضاء على الجناة لمظنة الكذب في الشهود؛ لضاعت أحكام، ولذهبت دماء، ولصار أمر الناس فوضى، وما تحقق المعنى الاجتماعي السامي في قوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)(البقرة: من الآية179).

فالمجتهدون مكلفون أن يستخرجوا الأحكام من دلائلها، ومكلفون بالعمل بما تؤديهم إليه الأسباب فيما يظهر لهم، وليس عليهم إثم ما غيب عنهم، فمن تزوج امرأة على أنها حلال له ثم تبين له أنها أخته من الرضاع بعد أن دخل بها لا يُعد آثماً فيما بينه وبين الله، لأنه ما كان يعلم، ولم يؤده تحريه إلى معرفة ما غاب عنه، حتى إذا انكشف له المجهول فسخ العقد، ونيط بالظاهر حُكمٌ، والباطن حُكمٌ، فأثبت الظاهرُ النسب والعدة والمهر، وثبت بالباطن أنه لا توارث ولا نفقة.

المجتهدون مكلفون أن يستخرجوا الأحكام من دلائلها، ومكلفون بالعمل بما تؤديهم إليه الأسباب فيما يظهر لهم، وليس عليهم إثم ما غيب عنهم، فالقاضي يأخذ بشهادة الشهود ويحكم بمقتضاها، ويترك لله ما بطن.

القياس هو الاجتهاد

-قد أثبت الشافعي القياس على أنه الاجتهاد، ولا يعتبر القياس إثبات حكم من المجتهد، بل يعتبره بياناً لحكم الشرع في المسألة التي يجتهد فيها المجتهد، ويقول في ذلك:

"والخير من الكتاب والسنة عين يتأخى معناها المجتهد"

أي أن القيـاس يعتمـد على الكتاب والسنة بأن يتعرف بعض نصوصها ومعناه، ويحاكي بين المسألة التي يجتهد فيها، والمعنى الذي يدل عليه النص الذي ثبت لديه أنه أصل القياس.

والشافعي لا يأخذ من ضروب الاجتهاد بالرأي إلا القياس، ولا طريق سواه من بعد النصوص الصريحة والإجماع وفتاوى الصحابة، ويقول في ذلك رحمه الله:

"إذا أمر النبي ﷺ بالاجتهاد، فالاجتهاد لا يكون إلا على طلب شيء، وطلب الشيء لا يكون إلا بدلائل، والدلائل هي القياس، ألا ترى أن أهل العلم إذا أصاب رجل لرجل عبداً (أي لشرائه) لم يقولوا له: أقِمْ عبداً ولا أمةً إلا وهو خابر بالسوق، ليقيم بمعنيين: بما يُخبركم ثمن مثله في يومه، ولا يكون ذلك إلا بأن يعتبر عليه بغيره، ولا يقال صاحب سلعة إلا وهو خابر، ولا يجوز أن يقال لفقيه غير عالم بقيم الرقيق: أقِمْ هذا العبد، ولا هذه الأمة، وإجارة هذا العامل، لأنه إذا أقام على غير مثال بدلالة على قيمته كان متعسفاً".

ومؤدى هذا الكلام أنه لا يمكن الاجتهاد إلا إذا كان ثمة مثال يقاس عليه، فمن أراد تقويم سلعة عليه أن يلاحظ ذات السلعة، وما يستفاد منها، ثم عليه أن يلاحظ سعر أمثالها في السوق، وكذلك أمر الفقيه يجب عليه أن يلاحظ أصلاً يبني عليه استنباطه، ولا يكون أمره فرطاً من غير ضابط يضبطه، وإذا كانت قيم الأشياء لا تُعرف إلا بملاحظة الأمثال؛ وإنها هينة في ذاتها بجوار أوامر الله ونهيه، فيجب على المجتهد أن يقيد في اجتهاده بما قيد به تقويم الأشياء، وهو أن يكون نص مماثل في المعنى يبني عليه اجتهاده.

أثبت الشافعي القياس على أنه الاجتهاد، وأنه بيان لحكم الشرع في المسألة وليس إثبات حكم من المجتهد، وأنه يعتمد على الكتاب والسنة، فلا يمكن الاجتهاد إلا إذا كان ثمة مثال يُقاس عليه، فيجب على الفقيه أن يلاحظ أصلاً يبني عليه استنباطه، ولا يكون أمره فرطاً من غير ضابط يضبطه.



العمل بالقياس

وليس الشافعي أول من أخذ بالقياس في الاجتهاد، فمالك أخذ به، ويعد أبو حنيفة شيخ فقهاء القياس، ومدرسة العراق من عهد إبراهيم النخعي كان يقود الاجتهاد فيها على القياس، ولكن الشافعي مع تخلفه في الزمن عن مدرسة العراق؛ ومع أنه لا يعد نفسه في مرتبة أبي حنيفة في استخراج علل الأقيسة، كان له فضل عظيم في هذا الأصل لأنه هو الذي ضبط قواعده، وذكر شروطه التي لا يخطئ الفقيه أو المجتهد إن اتبعها عند محاولة تعرف الحكم بالقياس، وهو الذي وضع مراتبه، ووضح أقسامه.

فإذا كان غيره قد سبقه بالقياس، فهو الذي استنبط قوانينه، ونظمه، ويعد في ذلك كاشفاً لما كان يقوله أئمة القياس، وإن لم يبينوه.

وهو يذكر مواضع القياس، وما لا يمكن أن يجري عليه القياس.

إن لم يكن للشافعي فضل السبق في الأخذ بالقياس، فأبو حنيفة شيخ فقهاء القياس، ومالك أخذ به، وغيرهم من الفقهاء، لكن للشافعي فضل عظيم في هذا الأصل، فهو الذي استنبط قوانينه ونظمه، وضبط قواعده، وذكر شروطه ومراتبه، ووضح أقسامه.

مراتب القياس

ويقسم الشافعي القياس إلى

مراتب على حسب مقدار وضوح العلة وقوتها في التأثير بالنسبة للفرع، فإذا كانت العلة في الفرع أوضح وأقوى تأثيراً، فهذا أقوى مراتب القياس، ومن ذلك أن يجيء التحريم على القليل، فيفهم بالأولى تحريم الكثير.

والثانية: قياس المساواة، بأن يكون الفرع بالنسبة في العلة مساوياً للأصل، كقياس العبد على الأمة في تصنيف العقوبة.

والقسم الثالث: أن يكون الفرع بالنسبة لعلة الحكم أقل وضوحاً من الأصل.

وأكثر الفقهاء لا يعدون المرتبتين الأولى والثانية من القياس، بل يعدون الأولى من دلالة الموافقة، وهو ما يسمى دلالة النص، والشافعي جوّز ذلك، ولم يعارض في إخراجه عن باب القياس، وجعله في باب النصوص، والثانية لا تعد قياساً، بل هي من قانون المساواة في أحكام التكليف بين الذكر والأنثى، ولذلك أخذ نفاة القياس بهذا النوع من الاستنباط.

والشافعي لا يكتفي ببيان القياس ومراتبه، بل يذكر الفقيه الذي يتقدم للقياس بما لا يخرج عن شروط الاجتهاد التي بيناها.

قسّم الشافعي القياس إلى مراتب حسب وضوح العلة وقوتها، فإن كانت العلة في الفرع أوضح منها في الأصل فهي أقوى مراتب القياس، وإن كانت مساوية لها، فهي المرتبة الثانية، وإن كانت أقل وضوحاً، فهي المرتبة الثالثة، وأكثر الفقهاء لا يعدون الأولى والثانية من القياس، بل الأولى من دلالة الموافقة، والثانية من قانون المساواة.

إبطال الاستحسان

قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: الاستحسان تسعة أعشار العلم، وقال الإمام الشافعي: من استحسن فقد شرّع.

فما هو الاستحسان الذي ورد عليه النفي والإثبات من الإمام الجليل وتلميذه العظيم؟

يفسر المالكية الاستحسان الذي جاء على لسان مالك رحمه الله تعالى بأنه الأخذ بالمصلحة المرسلة، وهي المصلحة التي تناسب أحكام الشرع، ولم يرد فيها نص بعينه، بالإثبات أو الإلغاء سواء أكان في موضوعها قياس أم لم يكن، وإذا كان ثمة قياس في مقابلها اختصها بعض المالكية باسم الاستحسان.

وفي الجملة، الاستحسان كما جاء على لسان الإمام مالك تفسيره: بأنه الأخذ بالمصلحة المناسبة حيث لا نص، والشافعي نفى ذلك نفياً مطلقاً.

الاستحسان تسعة أعشار العلم عند مالك، والشافعي قال: من استحسن فقد شرّع، وهو عند مالك: الأخذ بالمصلحة المناسبة حيث لا نص، والشافعي نفى ذلك نفياً مطلقاً.

أدلة النفي

واستدل في نفيه:

أولاً: أن الأخذ بالاستحسان معناه أن الشرع لم يتعرض لحكم المسألة، والله تعالى قال: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) (القيامة:36).
وترك الأمر من غير نص مبين، أو يحمل عليه بقياس معناه أن الإنسان ترك سدى، وترك الأمر من غير حكم بنص مبين، أو تجمل عليه بقياس معناه أن الإنسان ترك سدى، وذلك باطل.

ثانياً: أن الطاعة لله ولرسوله فقط، وأن الحكم يكون بما أنزل الله، وذلك يتحقق بالحكم بالنص، أو بالحمل على نص.

ثالثاً: أن النبي ﷺ ما كان يبين الأحكام الفقهية باستحسانه، بل كان ينظر الوحي في كل أمر لم يجيء فيه، ولو جاز الاستحسان لجاز من النبي ﷺ، فما ينطق عن الهوى.

رابعاً: أن النبي ﷺ استنكر على الصحابة حكمهم بمقتضى استحسانهم عندما قتلوا رجلاً لاذ بشجرة، وقال: أسلمت لوجه الله، فاستحسنوا قتله، لأنه قالها تحت حر السيف، فاستنكر النبي ﷺ فعلهم.

خامساً: أن الاستحسان لا ضابط له ولا مقياس، وذلك يؤدي إلى الاختلاف من غير ضابط يرجع إليه، فيكون كل واحد يحكم بتشهيه، بخلاف القياس، فإن له ضابطاً يرجع إليه، وهو النص الذي اعتمد عليه.

سادساً: بأن الاستحسان وهو حكم المصلحة لو كان مقبولاً لأخذ به من العالم بالشريعة، وغير العالم، لأن إدراك المصلحة ممكن من كليهما، بل ربما كان أهل الصناعات أكثر إدراكاً لوجود المصالح من العلماء.

ولكن يجاب على ذلك بأن الذين قرروا الأخذ بالمصلحة اشترطوا أن تكون من جنس المصالح التي أقرها الشارع، وإن لم يشهد لها نص خاص، أعملوها في المواضع التي ليس فيها نصوص، وذلك كله لا يتصور إلا ممن يكون عالماً بالشريعة في مصادرها ومواردها، وأوجه المصالح الذي أقرها.
بهذه الأدلة التي ساقها في الأم والرسالة رد الاستحسان.

أبطل الإمام الشافعي الاستحسان ونفاه نفياً مطلقاً، واستدل على نفيه بأدلة ذكرها في كتبه.. ولكن أُجيب على رده بأن الذين قرروا الأخذ بالمصلحة اشترطوا أن تكون من جنس المصالح التي أقرها الشارع، وأنها لا يتصور أن تكون إلا ممن يكون عالماً بالشريعة في مصادرها ومواردها.

4 شيوخ الشافعي

تلقى الشافعي الفقه والحديث على شيوخ قد تباعدت أماكنهم، وتخالفت مناهجهم، حتى لقد كان بعضهم معتزلياً ممن كانوا يشتغلون بعلم الكلام الذي كان الشافعي ينهى عنه، ولقد نال من كلٍ خير ما عنده، فأخذ منه ما يراه واجب الأخذ، وترك منه ما يراه واجب الرد.

لقد أخذ عن شيوخ بمكة، وشيوخ بالمدينة، وشيوخ باليمن، وشيوخ بالعراق.

وأول شيخ قصد إليه الشافعي حين عزم على دراسة الفقه: مسلم بن خالد الزنجي، ثم أمَّ مجلس سفيان بن عيينة، ثم تهيأت له الأسباب للذهاب إلى المدينة، وليأخذ عن مالك، ثم لما أتت به محنته إلى العراق كتب كُتب محمد بن الحسن، وسمعها عليه.

هؤلاء أكثر شيوخ الشافعي نفعاً له وتأثيراً عليه، وأكثر هؤلاء تأثيراً ونفعاً: سفيان بن عيينة، ومالك، وإذا ذُكر العلماء فمالك النجم كما نُقل عن الشافعي.

مسلم بن خالد الزنجي

تتلمذ الشافعي على كثير من الشيوخ تباعدت أماكنهم، وتخالفت مناهجهم، فنال من كلٍّ خير ما عنده، وكان أكثرهم نفعاً له وتأثيراً عليه سفيان بن عيينة، ومالك بن أنس.

تنوع الأخذ

وللشافعي شيوخ كثيرون غيرهم من مختلف البلدان، ومن مختلف الآراء والاتجاهات، قال أبو الوليد ابن أبي الجارود: "كنا نتحدث نحن وأصحابنا من أهل مكة أن الشافعي أخذ كتب ابن جريج عن أربعة أنفس: عن مسلم بن خالد، وسعيد بن سالم، وهذان فقيهان، وعن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي روّاد -وكان أعلمهم بابن جريج- وعن عبد الله بن الحارث المخزومي -وكان من الأثبات- وانتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس، رحل إليه ولازمه، وأخذ عنه، وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن جملاً ليس فيها شيء إلا وقد سمعه عليه، فاجتمع له علم أهل الرأي، وعلم أهل الحديث، فتصرف في ذلك حتى أصّل الأصول، وقعد القواعد، وأذعن له الموافق والمخالف، واشتهر أمره وعلا ذكره، وارتفع قدره حتى صار منه ما صار".

أخذ الشافعي كتب ابن جريج عن مسلم بن خالد، وسعيد بن سالم، وابن أبي روّاد، وعبد الله بن الحارث، وأخذ فقه المدينة عن مالك، وفقه العراق عن محمد بن الحسن، فاجتمع له علم أهل الرأي، وعلم أهل الحديث.



ونذكر هنا شيوخه الذين أخذ عنهم في كل بلد:

شيوخه من أهل مكة

سفيان بن عُيينة بن عمران الهلالي، وعبد الرحمن بن عبد الله بن أبي مُليكة، وعبد الله بن المؤمل المخزومي المكي، وعبد الرحمن بن الحسن بن القاسم الأزرقي الغساني، وإبراهيم بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أبي محذورة، وعثمان ابن أبي الكتاب الخزاعي المكين ومحمد بن علي بن شافع، ومحمد بن أبي العباس بن عثمان بن شافع، وإسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين المقرئ، ومسلم بن خالد الزنجي، وعبد الله بن الحارث بن عبد الملك المخزومي، وحمّاد بن طريف، والفُضيل بن عياض وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي روّاد، وأبو صفوان: عبد بن سعيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، ومحمد بن عثمان بن صفوان الجُمَحي، وسعيد بن سالم القدّاح المكي، وداود بن عبد الرحمن العطار، ويحيى بن سليم الطائفي.

ربما لم يتهيأ لعالم ما تهيأ للشافعي من كثرة المشايخ، وتنوع مذاهبهم، وأماكنهم، فأخذ في مكة عن أكثر علمائها، كسفيان بن عيينة، وابن أبي مُليكة، ومسلم بن خالد الزنجي، والفضيل بن عياض، ... وغيرهم كثير.

شيوخه من أهل المدينة

مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي، وإبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وعبد العزيز بن محمد الداروردي، وأبو إسماعيل حاتم بن إسماعيل المزني، وأنس بن عياض بن عبد الرحمن الليثي، ومحمد بن إسماعيل بن أبي فُديك، وعبد الله بن نافع الصائغ، وإبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي، والقاسم بن عبد الله بن عمر العُمَري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وعطّاف بن خالد المخزومي، ومحمد بن عبد الله بن دينار، ومحمد بن عمرو بن واقد الأسلمي، وسليمان بن عمرو.

وفي المدينة لازم أعلم علمائها مالك بن أنس، كما أخذ عن بقية العلماء فيها كإبراهيم بن سعد، وعبد العزيز الدارودي، وابن أبي فُديك، وعبد الله الصائغ، وسليمان بن عمرو وغيرهم.

شيوخه من سائر البلدان

هشام بن يوسف الصنعاني، ومُطرِّف بن مازن الصنعاني، وأبو حنيفة بن سِماك بن الفضل، ومحمد بن خالد الجندي، ومحمد بن عبد الرحمن الجندي، وأبو حفص عمرو بن أبي سلمة، وأيوب بن سُوَيد الرَّملي، ويحيى بن حسَّان التّنّيسي، وأبو أسامة حمّاد بن أسامة الكوفي، ومروان بن معاوية الفزاري، وأبو معاوية الضرير، ووكيع بن الجرّاح، ومحمد بن الحسن الشيباني الكوفي، وعبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، وإسماعيل بن إبراهيم بن علية المصري، ويوسف بن خالد التميمي البصري، وعمر بن جبير القاضي، وأبو قطن عمرو بن الهيثم بن قطن القطعي البصري، وسعيد بن مَسلمة بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وغيرهم.

ورحلته الكثيرة وتنقله في البلاد، جعلته يتلقى على أكثر علمائها،كهشام بن يوسف، مطرِّف بن مازن، ووكيع بن الجراح، ومحمد بن الحسن، ويحيى بن حسّان، وغيرهم كثير.

مزيج محكم

وهكذا تلقى الإمام الشافعي العلم على عدة من الشيوخ، أصحاب المذاهب والنزعات المختلفة، فتلقى فقه أكثر المذاهب التي قامت في عصره، وانساغ كل ذلك العلم الكثير في نفس الشافعي، فكان منه ذلك المزيج الفقهي المحكم الذي تلاقت فيه كل النزعات منسجمة متعادلة، متآلفة النغم غير متنافرة، وتولدت عنه تلك المعاني الكلية التي صهرها الشافعي وقدّمها للناس في بيان رائع وقول محكم.

انساغ ذلك العلم الكثير الذي تلقاه الشافعي في نفسه، فكان منه ذلك المزيج الفقهي المحكم، وتولدت عنده تلك المعاني الكلية التي صهرها الشافعي، وقدّمها للناس في بيان رائع وقول محكم.



الفصل الثالث





2 تلاميذه في العراق

3 تلاميذه في مصر

تلاميذ الشافعي

لم يكن مذهب الإمام الشافعي لينتشر لو لم يُهيَّأ له تلاميذ نجباء، حملوا عنه العلم، ورووه ونشروه في مختلف البلاد، فكثير من العلماء وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد العالية، لكنهم لم يُخلَّد ذكرهم كما خُلِّد ذكر الأئمة الأربعة، لأنهم لم يوجد لهم تلاميذ ينشرون مذاهبهم، كما وجد لهؤلاء الأئمة الأربعة.

التلاميذ وسيلة أساسية لحمل العلم ونشره، وقد وصلتنا المذاهب الأربعة عن طريق هؤلاء التلاميذ، بينما كثير من المذاهب لم تصلنا لعدم وجود تلاميذ تحفظها وتنشرها.

التفاف أصحابه حوله

وقد خلّف الإمام الشافعي كثيراً من هؤلاء التلاميذ النابهين الذين عُرفوا بالعلم، وهؤلاء الذين نسميهم تلاميذ ما هم في حقيقتهم إلا قادة من قادة العلم، وحواريون أصفياء لهؤلاء الأئمة، فهم بذاتهم أئمة من الأئمة الأعلام، فكان للإمام الشافعي أصحاب وتلاميذ في الحجاز وفي العراق وفي مصر.

قال داود بن علي: اجتمع للشافعي رحمه الله من الفضائل ما لم تجتمع لغيره:

وأول ذلك: شرف نسبه ومنصبه، وأنه من رهط النبي ﷺ.

ومنها: صحة الدين وسلامة الاعتقاد من الأهواء والبدع.

ومنها: سخاوة النفس.

ومنها: معرفته بصحة الحديث وسقمه.

ومنها: معرفته بناسخ الحديث ومنسوخه.

ومنها: حفظه لكتاب الله، وحفظه لأخبار رسول الله ﷺ، ومعرفته بسير النبي ﷺ، وسير خلفائه.

ومنها: كشفه لتمويه مخالفيه.

ومنها: تأليفه الكتب القديمة والجديدة.

ومنها: ما اتفق له من الأصحاب والتلامذة.

تلاميذ الشافعي كان لهم الفضل في نشر مذهبه، وحمله إلى مختلف البلاد، ومن الفضائل التي اجتمعت للشافعي أنه تهيأ له من التلاميذ والأصحاب ما لم يتهيأ لغيره.

1 تلاميذه في الحجاز:

من أشهر تلاميذ الإمام الشافعي في الحجاز أربعة:

1 محمد بن إدريس

أبو بكر، وافق اسمه اسم أستاذه، وكان كثير الصحبة للإمام الشافعي، كثير الأخذ عنه، لكنه لم يكتب، ولم يدرِّس، فلم يكن له خلود في ذكره كذكر غيره.

قال عنه ابن عبد البر: صحب الشافعي، ولا أعلم في أي سنة مات، وأخذ عنه بمكة.

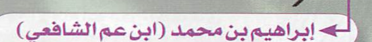
2 إبراهيم بن محمد بن العباس بن عثمان بن شافع المطلبي

يُكنَّى بأبي إسحاق، وهو ابن عم الإمام الشافعي، نشأ في بيت علم وفضل، كان أبوه من رواة الحديث وحفاظه، وكذلك جده من أمه محمد بن علي بن شافع.

وقد أخذ أبو إسحاق عن الإمام الجليل حمَّاد بن زيد، والإمام الجليل سفيان بن عيينة.

ثم أخذ عن الإمام الشافعي، لكنه لم يُنقل عنه شيء في الفقه، وانقطعت العلاقة بينه وبين ابن عمه عندما ارتحل الشافعي إلى مصر.

لكن أبا إسحاق كان محدِّثاً ثقة، روى عنه أهل الحديث وأثنوا عليه، وأثنى عليه الإمام الجليل أحمد بن حنبل، وروى عنه أصحاب الحديث في الكتب الستة، فكان له شأن في رواية الحديث، نشأ بمكة، وتوفي بها سنة 237هـ.


إبراهيم بن محمد (ابن عم الشافعي)

محمد بن إدريس، اسمه كاسم أستاذه، صحبه، وأخذ عنه، لكنه لم يكتب، ولم يدرّس.

3 موسى بن أبي الجارود المكي، المشهور بأبي الوليد



وكان مفتي أهل مكة، وممن يُعترف له بالدين والأمانة والورع، والحفظ لمقالة الشافعي، روى عن أستاذه الكثير من الأحاديث، وروى عنه كتاب الأمالي، ويعتبر علماء الحديث أبا الجارود واحداً من كبار الفقهاء المكيين على مذهب الإمام الشافعي، وقد وعى الفقه وسجّل الحديث، وسجّل بعض المسائل.

موسى بن أبي الجارود، مفتي أهل مكة، عُرف بالدين والأمانة والورع، والحفظ لمقالة الشافعي، وهو واحد من كبار الفقهاء المكيين على المذهب الشافعي.

4 الإمام أبو بكر الحميدي

وقد كان فقيهاً محدِّثاً ثقة، حافظاً، صاحب علم وفضل، أخذ عن الإمام سفيان بن عيينة، ثم أخذ عن الإمام الشافعي، وصار من خاصته، يذبّ عنه، وينتحل مذهبه، وكتب أكثر كتبه، توفي سنة 219 بمكة، وكان قد خرج مع الشافعي إلى مصر، ثم عاد إلى مكة بعد موت الشافعي، روى عنه أصحاب الكتب، وروى عنه البخاري 75 حديثاً.

هؤلاء بعض من تفقهوا على الشافعي بمكة، وجاء ذكرهم بين أصحابه، ونجد أن هؤلاء رغم طول صحبتهم للإمام الشافعي، لم يكن لهم شأن كبير في تخليد الفقه الشافعي، بقدر ما كان لهم دور كبير في رواية الحديث.

أبو بكر الحميدي: فقيه، محدّث، ثقة، حافظ، انتحل مذهب الشافعي، وأخذ عنه، وكتب أكثر كتبه، روى عنه أصحاب الكتب، وروى عنه البخاري.

الإمام أبو بكر الحميدي



2 تلاميذه في العراق

من الذين اتفق للشافعي من الأصحاب والذابين عنه، والمنتحلين بالانتساب إليه:

1 الإمام أحمد بن حنبل

سيّد أهل الحديث في عصره، والذي لا يختلف في علمه موافق ولا مخالف منصف.

وكان من أجلّ تلامذته، وأكثر الناس ملازمة له، وأخصهم لمن استخصه على ملازمته، وكان يأمر أن تُكتب كتبه، ويُسرَّ بمجالسته، ويذبّ عنه، ويدعو إليه، وإلى مجالسة إخوانه، ويخبر أنه ما رأى مثله، وقد حكى عنه، وروى عنه.

قال فيه الشافعي: "خرجتُ من بغداد، وما خلَّفتُ فيها أفقه ولا أورع ولا أزهد ولا أعلم من أحمد".

وكان يحفظ -كما يقول أبو زرعة- ألف ألف حديث، وقال إبراهيم الحربي: رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين.

وقال قتيبة: إذا رأيت الرجل يحب أحمد، فاعلم أنه صاحب سنة.

سجنه المعتصم في محنة خلق القرآن ثمانية وعشرين شهراً، ثم لما ولي المتوكل أكرم الإمام أحمد، توفي سنة 241هـ رحمه الله تعالى.

وسنفرد كتاباً خاصاً فيه إن شاء الله تعالى، لأنه أحد الأئمة الأعلام الأربعة..

أجلّ تلاميذ الشافعي، وأكثرهم ملازمة له: الإمام أحمد بن حنبل الذي قيل فيه: كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين، كان يحب الشافعي كثيراً ويدعو إليه، ويدافع عنه، ويُخبر أنه ما رأى مثله، سُجن في محنة خلق القرآن، ثم أكرمه المتوكل.

الإمام الجليل أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى

2 إبراهيم بن خالد الكلبي، أبو ثور

قال ابن حبان: كان أحد أئمة الدنيا: فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً وخيراً، وسُئل الإمام أحمد بن حنبل: ما تقول في أبي ثور؟ قال: أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة، وهو عندي في مسلاخ سفيان الثوري، (والمسلاخ: الجلد، يريد أنه في مستوى علمه وطريقته).

وكان أبو ثور من أعظم الناس في فقه الحلال والحرام، جاء رجل يسأل الإمام أحمد عن مسألة في الحلال والحرام لم يحب الإمام أن يجيب عنها، فقال له الإمام أحمد: سَلْ -عافاك الله- غيرنا.

فقال الرجل: إنما نريد جوابك يا أبا عبد الله.

فقال: سَلْ -عافاك الله- غيرنا، سَلْ الفقهاء، سَلْ أبا ثور. من هنا نعلم مكانة أبي ثور.

روى عن سفيان بن عيينة، وابن علية، والشافعي، وعبد الرحمن بن مهدي، ويزيد بن هارون، وجماعة، وروى عنه مسلم خارج الصحيح، وأبو داود، وابن ماجة، وأبو قاسم البغوي.

وكان أبو ثور شديد الميل للإمام الشافعي، بالإضافة إلى أنه كان له فقه مستقل، وهو أحد الرواة الكبار لفقه الشافعي في العراق والذي يُسمَّى الفقه القديم، توفي سنة 237هـ.



الإمام أبي ثور منارة العلم والورع

أبو ثور، أحد أئمة الدنيا، فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً وخيراً، من أعظم الناس في فقه الحلال والحرام، كان شديد الميل للشافعي، وله فقه مستقل، وهو أحد رواة فقه الشافعي في العراق.

3 محمد بن الحسن بن الصباح الزعفراني، أبو علي

ثالث الأئمة من تلاميذ الشافعي في العراق، كان إماماً جليلاً، فقيهاً محدِّثاً، فصيحاً بليغاً، ثقة، ثبتاً، سمع من كبار العلماء في زمانه؛ ابن عيينة، ووكيع، ويزيد بن هارون، وغيرهم، وكان يذهب مذهب أهل العراق في الفقه (مذهب أبي حنيفة) فلما جاء الشافعي إلى بغداد جلس إليه، وأُعجب به إعجاباً عظيماً، ووجد أن كثيراً من الآراء التي كان يتبناها، أثبت الشافعي أن الحجة فيها معه، فصار من مريدي الإمام الشافعي.

وأجمع العلماء على أمانته، وعلى صدق روايته، قال الماوردي: هو أثبت رواة القديم، وروى عنه البخاري وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وهو من الأئمة الذين حفظوا المذهب الشافعي

في العراق، الذي يُسمَّى المذهب القديم، يقولون: أربعة الذين حفظوا المذهب القديم: أحمد بن حنبل، وأبو ثور، والإمام الكرابيسي، والزعفراني.

وكان من أدق الناس لغة وفصاحة، ولم يكن بين تلاميذ الإمام الشافعي أفصح منه لساناً، ولا أبصر منه بالعربية والقراءة، وقد روى عنه الخطيب البغدادي أنه قال: قدم علينا الشافعي واجتمعنا إليه، فقال: التمسوا من يقرأ لكم، فلم يجترئ أن يقرأ عليه غيري، وكنتُ أحدَث القوم سناً، ما كان في وجهي شعرة، وإني لأتعجب اليوم من انطلاق لساني بين يدي الشافعي، وأتعجب من جسارتي يومئذ.

وجاء عنه أيضاً: لما قرأتُ كتاب الرسالة على الشافعي، قال: من أي العرب أنت؟

فقلت: ما أنا بعربي؛ وما أنا إلا من قرية يُقال لها: الزعفرانية.

قال لي: فأنت سيّد هذه القرية.

والزعفراني هو صاحب القول المشهور: كان أصحاب الحديث رقوداً حتى جاء الشافعي فأيقظهم فتيقظوا.

وهو القائل: ما حمل أحد محبرة إلا وللشافعي عليه منّة.

توفي سنة 260هـ في رمضان، رحمه الله تعالى.



الإمام محمد بن الحسن الزعفراني يقرأ العلم على شيخه الإمام الشافعي رحمهما الله تعالى

4 أبو عبد الرحمن أحمد بن محمد بن يحيى الأشعري البصري



كان من أكثر التلاميذ تحمساً للشافعي وتأثراً به، ودفاعاً عن مذهبه، وخاصة بعد أن ذهب الإمام من بغداد، واستقر في مصر، حتى صار يُلقّب بالشافعي؛ لذبه عن صحبه في بغداد، إذ كان يناظر عن ذلك المذهب.

وكان من جلة العلماء، وحذاق المتكلمين، والعارفين بالإجماع والاختلاف، وكان رفيعاً عند ذوي السلطان وذوي الأقدار، عالماً بالحديث والأثر، متسعاً في العلم، مع تمكن في النظر والجدل، وهو أول من خلف الشافعي بالعراق في الذب عن أصوله، ومذهبه، والنصرة لقوله، حتى وصف به، وله مصنفات كثيرة جليلة، وقد توفي ببغداد، رحمه الله تعالى.

الإمام المحدث أحمد بن محمد الأشعري

5 أبو علي الحسين بن علي بن يزيد الكرابيسي

من العلماء الكبار الذين خلفهم الشافعي في بغداد، وهو من الأربعة الذين رووا فقه الإمام الشافعي في العراق، وكان إماماً جليلاً عالماً متقناً، وكانت فتوى السلطان تدور عليه (أي هو المفتي الرسمي)، وكان نظّاراً جدلياً، وكان يذهب إلى مذهب أهل العراق، فلما قدم الشافعي جالسه وقرأ كتبه من الزعفراني.

جاء في طبقات ابن السبكي عن الكرابيسي: لما قدم الشافعي قدمتُه، قلتُ له: أتأذن لي أقرأ عليك الكتب؟ فأبى، وقال: خذ كتب الزعفراني، فقد أجزتها لك.

وأخذ يصنف التصانيف العظيمة في أصول الفقه وفروعه، وفي علم الحديث، والجرح والتعديل، حتى يقولون: بلغ عدد كتبه 200 جزء.

وكان الكرابيسي صاحب قدر رفيع عند صفة الناس، وعند عامة الناس، وكان قريباً من قلب الإمام أحمد، فلما حدثت الفتنة، قال قولاً وسطاً بين مذهب أهل السنة في أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق، وقول المعتزلة في أن القرآن مخلوق وليس بكلام الله، فقال: القرآن غير مخلوق، ولفظي به مخلوق، فغضب عليه الإمام أحمد، ولعل هذا كان السبب في انه خسر الكثير من مكانته العلمية عند صفوة العلماء وعلى رأسهم أحمد، وأبو ثور.

وإنما سُمي الكرابيسي نسبة إلى الكرابيس، وهي الثياب الغليظة التي كان يبيعها، توفي سنة 284هـ، رحمه الله تعالى.

أبو علي الكرابيسي من الأربعة الذين رووا فقه الشافعي في العراق، كان إماماً جليلاً، عالماً، متقناً، قرأ كتب الشافعي من الزعفراني، وله تصانيف عظيمة يقولون بلغت 200 جزء، وكان صاحب قدر رفيع عند صفوة الناس وعامتهم.



3 تلاميذه في مصر:

من الذين اتفق للشافعي من الأصحاب والذابين عنه، والمنتحلين بالانتساب إليه:

1 أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي

أول هؤلاء التلاميذ، ينسب إلى بويط، وهي قرية من أعمال مصر، وهو من أكبر أصحاب الشافعي المصريين.
كان إماماً جليلاً، عابداً، زاهداً، فقيهاً عظيماً، مناظراً، جليلاً، من جبال العلم والدين، تفقه على الشافعي، واختص بصحبته.

وكان الشافعي يعتمد البويطي في الفتيا، وقد استخلفه في حلقته، وآثره على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، مع عظيم محبته لابن عبد الحكم، وهذا يدل على المكانة العظيمة التي كانت للإمام البويطي، والمعرفة والثقة العظيمة للإمام الشافعي به.

امتُحن في فتنة خلق القرآن، وكان أحد من أُريد على ترك دينه وأوذي في الله، وحُمل في الأقياد من مصر، واغترب عن أهله، وطال في السجن حبسه، ممتنعاً عما أُريد منه من القول بخلق القرآن، صابراً على الأذى في الله عز وجل، حتى مات في أقياده محبوساً، ثابتاً على دينه، غير مجيب إلى ما أُريد منه.

قال الساجن: كان البويطي وهو في الحبس يغتسل كل جمعة، ويتطيب، ويغسل ثيابه، ثم يخرج إلى باب السجن إذا سمع النداء، فيرده السجّان ويقول: ارجع رحمك الله، فيقول البويطي: اللهم إني أجبت داعيك فمنعوني.

ومن الكلمات النورانية التي كتبها الإمام البويطي في سجنه للإمام الربيع قوله: إنه ليأتي عليّ أوقات لا أحسُّ بالحديد أنه على بدني حتى تلمسه يداي، فإذا قرأتَ كتابي هذا، فأحسِن خُلقك مع أهل حلقتك، واستوصِ بالغرباء خيراً، فكثيراً ما كنت أسمع الشافعي رحمه الله تعالى يتمثل هذا البيت:

أُهين لهم نفسي لأُكرمها بهم
ولن تُكرَم النفسُ التي لا تهينها

الإمام البويطي من أعظم تلاميذ الإمام الشافعي، ومدير حلقته من بعده، وكان يحفظ فقه الإمام الشافعي وعلمه، إلا أنه لم يؤلِّف سوى كتاب "المختصر"، اختصره من كلام الشافعي رحمه الله، قال أبو عاصم عن هذا الكتاب: (هو في غاية الحسن).

توفي الإمام البويطي سنة 231هـ في سجن بغداد، رحمه الله تعالى.

أبو يعقوب البويطي، من أكبر أصحاب الشافعي، إمام جليل، عابد زاهد، وفقيه عظيم، من جبال العلم والدين، تفقه على الشافعي، واختصّ بصحبته، اعتمده الشافعي في الفتوى، واستخلفه في حلقته، امتُحن في فتنة خلق القرآن، وسجن، ومات في سجنه صابراً على الأذى في الله عز وجل، لم يؤلِّف سوى كتاب المختصر، اختصره من كلام الشافعي.

2 الربيع بن سليمان أبو محمد

الإمام الثاني من أئمة مصر من تلاميذ الشافعي، بن عبد الجبار بن كامل المرادي بالولاء، المؤذِّن، كان يؤذِّن في الجامع الأكبر في الفسطاط إلى أن مات.
وكان جليلاً، مصنفاً ثقة، ثبتاً فيما يرويه.

قال ابن عبد البر في الانتقاء: صحب الشافعي طويلاً، وأخذ عنه كثيراً، وخدمه، وكان طلبة العلم بعد وفاة الشافعي يرحلون إليه في طلب كتب الشافعي.

وقال فيه ياقوت: هو صاحب الشافعي المشهور بصحبته، ومات سنة 270هـ، وهو آخر من روى بمصر من الشافعي، وكان جليلاً مصنفاً، حدَّث بكتب الشافعي كلها، ونقلها الناس عنه.

وقال البيهقي في آخر كتابه "مناقب الشافعي": الربيع بن سليمان المرادي، هو راوية كتب الشافعي، وإذا أطلقت كلمة الربيع عند رواية الكتب انصرفت إليه؛ لأنه هو الذي اشتهر بروايتها.

جلس الربيع قبل مجيء الشافعي لتلقي العلم من كبار العلماء؛ من ابن وهب صاحب الإمام مالك، والليث، وغيرهم، وروى عنه عدد كبير من العلماء من رواة الحديث مثل النسائي، وأبي داود، وابن ماجة، والترمذي.

وقد عمَّر الربيع طويلاً، ولد سنة 174هـ وتوفي في 20 شوال سنة 270هـ، رحمه الله تعالى.



الربيع بن سليمان المرادي المؤذِّن، صحب الشافعي طويلاً، وأخذ عنه، وخدمه، حدَّث بكتب الشافعي كلها، ونقلها الناس عنه، فهو راوية كتبه، عمَّر طويلاً، وروى عنه عدد كبير من العلماء.



ومن تلاميذ الشافعي أيضاً، نسبة إلى الجيزة، وكنيته أبو محمد.

وكان واسع المعرفة في الفقه وأصول الفقه، وفروع المذهب المالكي قبل أن يأتي الإمام الشافعي، وقد روى عن عبد الله بن وهب صاحب الإمام مالك، وعبد الله بن الحكم، وإسحاق بن وهب وغيرهم.

وروى عنه كبار العلماء، من بينهم أصحاب الكتب الستة وغيرهم.

وكان الربيع الجيزي عاقلاً متسامحاً، ومن سماحته أنه كان يعبر الطريق يوماً، فرُمي عليه رماد، فنزل عن دابته ونفض الرماد عن نفسه، ولم يقل شيئاً، فقيل له: ألا تزجره؟

فقال: من استحق النار وصولح بالرماد فقد ربح. (أي أني أرى نفسي أستحق النار فأصابني الرماد فقط، فأنا الرابح).

توفي في ذي الحجة سنة 256هـ، وقبره بالجيزة، رحمه الله تعالى.

الربيع بن سليمان الجيزي كان واسع المعرفة في الفقه وأصوله، وفروع المذهب المالكي قبل أن يأتي الشافعي، وكان عاقلاً متسامحاً، روى عنه كبار العلماء، وأصحاب الكتب الستة.

4 إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني

إمام جليل عظيم من تلاميذ الشافعي، أبو إبراهيم، من أهل مصر، ناصر المذهب، وبدر سمائه، وكان جبل علم، مناظراً، محجاجاً فقيهاً، عالماً، راجح المعرفة، عارفاً بوجوه الجدل، حسن البيان، وكان زاهداً، ورعاً، متقللاً من الدنيا، قال الشافعي رحمه الله في وصفه: "لو ناظره الشيطان لغلبه" من شدة قوته في الحجة.

وقال أيضاً: "المزني صاحب مذهبي".

وكان المزني بالنسبة للشافعي مثل محمد بن الحسن بالنسبة لأبي حنيفة، ومثل ابن القاسم وابن وهب بالنسبة للإمام مالك.

وله في مذهب الشافعي كتب كثيرة منها: الجامع الكبير، الجامع الصغير، المختصر، المنثور، المسائل المعتبرة، الوثائق، والترغيب في العلم، وغيرها، وكلها نقلها عن الشافعي.

قال فيه ابن حجر: صنف المبسوط والمختصر من علم الشافعي، وكان آية في الحجاج والمناظرة، عابداً عاملاً، متواضعاً، غواصاً في المعاني، وكان من شدة حرصه وتقواه كلما كتب مسألة من المسائل يصلي ركعتين وكان من الزهد بدرجة يندر مثلها بين العلماء.

أخذ عن المزني بعض علماء خراسان والعراق والشام، وتوفي في 24 رمضان 264هـ.

إسماعيل بن يحيى المزني كان جبل علم، مناظراً محجاجاً، فقيهاً عالماً، قال عنه الشافعي: لو ناظره الشيطان لغلبهن وقال: المزني صاحب مذهبي، وله في مذهب الشافعي كتب كثيرة نقلها كلها عن الشافعي، أخذ عنه كثير من علماء خراسان والعراق والشام.



5 يونس بن عبد الأعلى الصدفي

من تلاميذ الشافعي الكبار في مصر، كان موسوعة من موسوعات الدين، روى عن سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب وروى عنه مسلم، والنسائي وابن ماجة وغيرهم.

وكان علّامة في الأخبار، وفي الصحيح من السقيم من الحديث.

وكان أيضاً من القرَّاء، أخذ القراءة عن ورش وغيره.

وكان من أعقل أهل زمانه، صاحَبَ الإمام الشافعي فترة طويلة ولزم مجلسه، وأخذ عنه الحديث والفقه، وكان الإمام الشافعي يثق به ويستريح إليه ويعتزُّ به.

قال علي بن عمرو بن خالد: سمعت أبي يقول: قال لي الشافعي: يا أبا الحسن، انظر إلى هذا الباب -يعني الباب الأول من أبواب المسجد- فنظرتُ إليه فقال: ما يدخل من هذا الباب أحد أعقل من يونس بن عبد الأعلى.

ولما وصل القاضي بكَّار إلى مصر، سأل محمد بن الليث -وهو من كبار العلماء هناك-: من أُشاور في مصر، ومن أثق به؟

فقال: عليك برجلين، أحدهما عاقل وهو يونس بن عبد الأعلى، والثاني عابد من الزهاد، وذكر له اسمه.

وكان يونس يروي الحِكَم عن الإمام الشافعي، ومن الحِكَم التي يرويها يقول: سمعت من الإمام الشافعي حِكمة لا تُسمَع إلا من مثله؛ وهي رضا الناس غاية لا تُدرَك، فانظر ما فيه صلاح نفسك في أمر دينك ودنياك فالزمه، وكان يروي عن الشافعي بيتين يقول فيهما:

ما حكَّ جلدَك مثل ظفرك ... فتولَّ أنتَ جميع أمرك

وإذا قصدتَ لحاجةٍ ... فاقصدْ لمعترفٍ بفضلك

وكان يونس من العلم والفضل ما جعل الإمام الجليل ابن جرير الطبري يدرس على يديه.

وقد عاش عمراً طويلاً، 96سنة، رحمه الله تعالى.



يونس بن عبد الأعلى موسوعة من موسوعات الدين، كان الشافعي يثق به، ويعتزُّ به، ويقول: ما يدخل أحد من هذا الباب أعقل من يونس بن عبد الأعلى، صاحَب الشافعي فترة طويلة، ولزم مجلسه، وكان يروي عنه الحِكم، عاش عمراً طويلاً، ودرس على يديه الإمام ابن جرير الطبري.

6 حرملة بن يحيى بن حرملة التُّجيبي

الإمام الآخر من الأئمة الذين تركهم الإمام الشافعي في مصر، يقال: لما انتقل الشافعي من العراق إلى مصر حلَّ ضيفاً عنده، وكان رجلاً فاضلاً، صاحب مكانة، وصاحب هيبة، روى من الكتب عن الإمام الشافعي -كما يقول ابن عبد البر- ما لم يروه الربيع المرادي، منها: كتاب الشروط، ثلاثة أجزاء، وكتاب السنن، عشرة أجزاء، وكتاب ألوان الإبل والغنم وصفاتها وأسنانها، وكتاب النكاح، وكتب كثيرة انفرد برواياتها عن الربيع.

وكان له مكانة عظيمة عند الإمام الشافعي، وكان مقدماً بين تلاميذه، وبالإضافة للكتب التي رواها، ألّف كتاب المبسوط، وألّف مختصراً باسمه "مختصر حرملة"، وكان ثقة في الحديث.

روى عن الإمام ابن وهب تلميذ الإمام مالك، وكان شديد الصلة به، حتى أن ابن وهب لما هرب من القضاء اختبأ في بيت حرملة، فسمع منه حرملة فترة طويلة لم تتيسر للآخرين، وقد روى عن حرملة مسلم في صحيحه، وابن ماجة، والنسائي.

وعاش 78سنة، كانت كلها علماً وخيراً وبركة، توفي بمصر سنة 266هـ رحمه الله تعالى.

a بن يحيى، حلَّ الشافعي ضيفاً عنده عندما جاء إلى مصر، وكان رجلاً فاضلاً، وصاحب هيبة ومكانة، روى عن الشافعي كثيراً من كتبه، وكان له مكانة عظيمة عنده، ألّف كتاب المبسوط، ومختصر حرملة، عاش ٧٨ سنة، كلها علم وخير وبركة.



5 محمد بن عبد الله بن عبد الحكم

من تلاميذ الإمام الشافعي في مصر كذلك، أبو عبد الله، ولد سنة 182هـ، كان أبوه عبد الله بن عبد الحكم رئيس المذهب المالكي بعد أشهب، ولما وصل الشافعي مصر كان محمد بن عبد الله في السابعة عشرة من عمره، فأخذ يلازمه، وتوطدت العلاقة بينهما، وصار أثيراً عند الشافعي وكان الشافعي يحبه حباً شديداً، فكانت بينهما مؤاخاة صادقة، وموادة صافية، ويعطيه الشافعي مكانة خاصة.

قول المزني: كنا نأتي إلى الشافعي نسمع منه، فنجلس على باب داره، ويأتي محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، فيصعد إليه ويطيل المكث، وربما تغدى معه، ثم ينزل، فيقرأ علينا الشافعي، فإذا فرغ من قراءته أعطى لمحمد الدابة حتى يرجع عليها، وينظر إليه وهو يذهب فيقول: "وددتُ لو أن لي ولداً مثله، وعليّ ألف دينار، لا أجد لها قضاءً".

وكان كبار علماء المالكية يعترضون على ذهاب ابن رئيسهم إلى المذهب الشافعي،

محمد بن عبد الحكم كان بمثابة الولد للشافعي.

ويقولون لوالده عبد الله بن الحكم: يا أبا محمد، إن محمداً ينقطع إلى هذا الرجل ويتردد عليه، فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه.

فيقول محمد: فجعل أبي يلاطفهم، فيقول: هو حَدَث (أي هو صغير)، وهو يحب النظر في اختلاف أقاويل الناس، ومعرفة ذلك.

ويقول لي في السر: يا بني الزم هذا الرجل، فإنك لو جاوزت هذا البلد وتكلمت في مسألة وقلت: قال أشهب -تلميذ الإمام مالك- لقيل لك: مَنْ أشهب؟

لكن لو قلت: قال الشافعي، عرف الناس كلهم مكانة الشافعي.

يقول محمد بن عبد الله بن الحكم: فلزمت الشافعي.

وقد سمع من الشافعي كتبه، ويقولون: إنه سمع منه كتاب أحكام القرآن، وكتاب الرد على محمد بن الحسن، والسنن، وروى عن الشافعي كتاب الوصايا.

توفي في ذي القعدة سنة 258هـ، وفي رواية سنة 268هـ، قال أبو عمرو الصرفي: كان أهل مصر لا يعدلون به أحداً (لا يرون أحداً يساويه في المكانة العلمية).

ولكنه بعد وفاة الشافعي، ترك المذهب وعاد إلى مالكيته، بسبب خلافه مع البويطي فيمن يخلف الشافعي في حلقته.

هؤلاء هم أشهر تلاميذ الإمام الشافعي،وقد كان له تلاميذ سواهم يصعب عدهم، فاكتفينا هنا بذكر من كان لهم أثر في المذهب ونشره، رحمهم الله أجمعين.

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، كان أبوه مالكي المذهب، فلما جاء الشافعي لزمه محمد وصار أثيراً عنده، وكان الشافعي يحبه حباً شديداً، ويتمنى أن يكون له ولد مثله، سمع من الشافعي وروى له، لكنه بعد وفاته ترك المذهب وعاد إلى مالكيته بسبب خلافه مع البويطي.





الفصل الرابع

وأزف الرحيل

1 ثناء جميل

2 دعاء صادق

3 وصيته عند الموت

4 مرض الموت

5 مواعظه عند موته

6 نهاية المطاف



1 ثناء جميل:

قد سبق في غضون هذا الكتاب كثير من شهادات العلماء للشافعي، ونذكر هنا مزيداً من أقوال من شهدوا له بالعلم والفضل:

قال الفضيل بن دكين: "ما رأينا ولا سمعنا أكمل عقلاً، ولا أحضر فهماً، ولا أجمع علماً من الشافعي".

وقال أبو ثور: "من زعم أنه رأى مثل محمد بن إدريس في علمه وفصاحته، ومعرفته، وثباته، وتمكنه فقد كذب، كان منقطع القرين في حياته، فلما مضى لسبيله لم يُعتض منه".

وقال شيخه سفيان بن عيينة -وقد قُرئ عليه حديث في الرقائق فغشي على الشافعي فقيل: قد مات الشافعي-: "إن كان قد مات؛ فقد مات أفضل أهل زمانه".

وقال هارون بن سعيد الأيلي -أحد شيوخ مسلم في صحيحه-: "ما رأيت مثل الشافعي".

وقال أبو منصور الأزهري: "عكفت على المؤلفات التي ألفها فقهاء الأمصار، فألفيت الشافعي أغزرهم علماً، وأفصحهم لساناً، وأوسعهم خاطراً".

ما شاهد أحدٌ الشافعي إلا وانطلق لسانه بمدحه والثناء عليه لتمكنه، وثباته، ووفور عقله، وأنه كان منقطع النظير في حياته.

إمام العلماء

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: "ما رأيت أحداً أعقل ولا أورع ولا أفصح، ولا أنبل رأياً من الشافعي".

وقال أيضاً: "ما رأيت رجلاً قط أكمل من الشافعي".

وقال الزعفراني: "ما رأيت مثل الشافعي؛ أفضل ولا أكرم ولا أسخى ولا أتقى، ولا أعلم منه".

وقال بشر المريسي: "ما رأيت أمهر من الشافعي".

وقال أحمد بن حنبل: "ما تكلم في العلم أقل خطأ، ولا أشد أخذاً بسنة النبي ﷺ من الشافعي".

وقال أيضاً -وذكر الشافعي-: "ما رأيت أفصح منه ولا أفهم للعلوم منه".

وقال إسحاق بن راهويه: "الشافعي إمام العلماء، وما يتكلم أحد بالرأي إلا والشافعي أقل خطأ منه"، وقال أيضاً: "الشافعي إمام".

العلماء يقولون عن الشافعي: إمام العلماء، يا لها من شهادة عظيمة! لو لم يكن يستحقها لما قالوها، كان قلما يخطئ، لتمكنه وكثرة علمه.

أبو عبيد القاسم بن سلام

امتحنته فوجدته كاملاً

وذكر يحيى بن سعيد الشافعي؛ فقال: "ما رأيت أعقل ولا أفقه منه".
وكان الحميدي إذا ذكر عنده الشافعي يقول: "حدثنا سيد الفقهاء الشافعي"، وقال مرة: "سيد علماء زمانه الشافعي".
وقال أيوب بن سويد الرملي -وهو أحد شيوخ الشافعي ومات قبل الشافعي بإحدى عشرة سنة-: "ما ظننت أني أعيش حتى أرى مثل الشافعي".
ويقول الجنيد: "كان الشافعي من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدين".
وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: "إن كان أحد يخالفنا فيثبت خلافه علينا فالشافعي، فقيل له: فلم؟ قال: لبيانه وتثبته في السؤال والجواب والاستماع".
وقال معمر بن شبيب: "سمعت المأمون يقول: امتحنت محمد بن إدريس الشافعي في كل شيء فوجدته كاملاً".
هذا غيض من فيض من ثناء كبار العلماء على الإمام الشافعي، وإقرارهم بعلمه وفضله، الموافق منهم والمخالف، فرحم الله الإمام الشافعي ورضي عنه.

ما عرفنا إماماً توالت فيه الشهادات كما توالت وكثرت في الشافعي من المخالفين والموافقين، في كمال عقله، وغزارة علمه، وفصاحة لسانه، وسعة فهمه، حتى قال معمر بن شبيب: امتحنته في كل شي فوجدته كاملاً. رحمه الله ورضي عنه.

2 دعاء صادق:

لقد ملأ الشافعي قلوب الموافقين والمخالفين، الشيوخ والتلاميذ، العامة والخاصة، ملأ قلوبهم جميعاً حباً وإجلالاً وتوقيراً له؛ بما فتح الله له من فهم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والتزام لطريقهما قولاً وعملاً، فرأى كثير منهم أن للشافعي منة عليهم لا يوفيها ويكافئها إلا أن يدعو لله تعالى له.
فهذا أحمد بن حنبل يقول معترفاً بفضل الشافعي وداعياً له: "هذا الذي ترون كله أو عامته من الشافعي، وما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو الله للشافعي، وأستغفر له".
ويقول أيضاً: "ستةً أدعو لهم في السحر، أحدهم الشافعي".
وقال يحيى بن سعيد القطان إمام المحدثين في زمانه: "أنا أدعو الله للشافعي في صلاتي من أربع سنين".
وكان يقول أيضاً: "أنا أدعو الله للشافعي، أخصه به".
وقال عبد الرحمن بن مهدي: "ما أصلي صلاة إلا وأدعو للشافعي فيها".

عندما يكثر فضل الإنسان، ويعجز الآخرون عن مكافأته وشكره، فإنهم يلجأون إلى الله بالدعاء له، وهكذا كان تلاميذ الإمام الشافعي ومن عاصره، لم يجدوا ما يكافئون به الشافعي، فراحوا يدعون له في صلاتهم، وأدبار صلواتهم السنين الطوال.



3 وصيته عند موته

قال الربيع بن سليمان: قُرئ على محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله وأنا حاضر هذا الكتاب:

كتبه محمد بن إدريس بن العباس الشافعي، في شعبان سنة ثلاث ومائتين، وأَشْهَدَ اللهَ عالمَ خائنةِ الأعين وما تخفي الصدور، وكفى به جل ثناؤه شهيداً، ثمَّ مَنْ سمعه:

أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ، لم يَزَلْ يَدينُ بذلك، وبه يدين حتى يتوفّاه الله تعالى، ويبعثه عليه إن شاء الله تعالى، وإنه يُوصِي نفسه وجماعة من سمع وصيته:

بإحلالِ ما أحلَّ الله تبارك وتعالى في كتابه، ثم على لسان نبيه ﷺ، وتحريمِ ما حرّم الله تعالى في الكتاب، ثم في السنة، ولا يجاوزون من ذلك إلى غيره؛ فإن مجاوزتَه تركُ فرضِ الله، وترك ما خالف الكتاب والسنة، وهما من المحدثات، والمحافظة على أداء فرائض الله في القول والعمل، والكفِّ عن محارمه خوفاً لله عز وجل، وكثرة ذكر الوقوف بن يدي ربه: «يوم تجد كلُّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً» (آل عمران:30).

وأن ينزل الدنيا حيث أنزلها اللهُ عز وجل، فإنه لم يجعلها دار مقام، إلا مقام مدة عاجلة الانقطاع، وإنما جعلها دار عمل، وجعل الآخرة دار قرارٍ وجزاءٍ، بما عمل في الدنيا من خيرٍ أو شر، إن لم يعفُ جل ثناؤه، وأن لا يُخالَّ أحداً إلا أحداً خاله الله ممن يعقل الخَلَّة لله تبارك وتعالى، ويرجى منه إفادة علم في دين وحسن أدب في دنيا، وأن يعرف المرء زمانه، ويرغب إلى الله تعالى في الخلاص من شرِّ نفسه فيه، ويمسك عن الإسراف، بقول أو فعل في أمر لا يلزمه، وأن يخلص النية لله فيما قال وعمل، فإن الله يكفي مما سواه، ولا يكفي منه شيء غيره، وأوصى متى حَدَث به حَدَثُ الموتِ الذي كتب الله عز وجل على خلقه، الذي أسأل الله العونَ عليه وعلى ما بعده، وكفاية كلِّ هولٍ دون الجنة برحمته.

فذكر الوصية في أمور مماليكه وأولاده وصدقته وغيرها، وقال في آخرها:

ومحمد بن إدريس يسأل الله القادر على ما يشاء أن يصلي على محمد عبده ورسوله، وأن يرحمه، فإنه فقير إلى رحمته، وأن يجيره من النار، فإنه غني عن عذابه، وأن يَخْلُفَه في جميع ما خلَّف بأفضل مما خلف به أحداً من المؤمنين، وأن يكفيهم فقده، ويَجْبُر مصيبتهم من بعده، وأن يقيهم معاصيه، وإتيان ما يقبح بهم، والحاجة إلى أحدٍ من خلقه بقدرته.

من كان ديدنه طوال حياته الانكباب على العلم والاجتهاد في اتباع الحق، لا بد أن تكون وصيته زاخرة بالحِكَم والمواعظ، فها هو يوصي بإحلال الحلال، وتحريم الحرام، واتباع الكتاب والسنة، وأداء الفرائض، والكف عن المحارم، وذكر الآخرة، ومصاحبة الأتقياء، وإخلاص النية لله، ثم يسأل الله لأهله وأولاده أن يجبرهم في مصيبتهم به، وأن يخلفهم خيراً.



الإمام الشافعي تقرأ عليه وصيته وهو على فراش الموت، رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين كل خير.



4 مرض الموت

علّته التي مات بها: ظهرت علة البواسير في الشافعي رحمه الله وهو بمصر، وكان يظن أن هذه العلة إنما نشأت بسبب استعماله اللُّبان -وكان يستعمله للحفظ-، يقول الشافعي: "استعملت اللبان للحفظ فأعقبني صبَّ الدم سنة".

وبسبب هذه العلة ما انقطع عنه النزيف، وربما ركب فسال الدم من عقبيه، وكان لا يبرح الطست تحته وفيه لبدة محشوة، وما لقي أحد من السقم ما لقي، فالنزيف أنهكه وأعنته.

والعجيب في الأمر، بل يكاد يكون معجزاً أن تكون هذه حال الشافعي، ويترك -في مدة أربع سنوات كلها سقم- من اجتهاده الجديد ما يملأ آلاف الورق، مع مواصلة الدروس والأبحاث والمناظرات والمطالعات في الليل والنهار، وكأن هذا الدأب والنشاط في العلم والبحث هو دواؤه الوحيد الشافي.

قال الربيع بن سليمان: أقام الشافعي ها هنا أربع سنين، فأملى ألفاً وخمسمائة ورقة، وخرّج كتاب "الأم" ألفي ورقة، وكتاب "السنن" وأشياء كثيرة، كلها في أربع سنين.

الإمام الشافعي في اخر وصاياه لأصحابه قبل وفاته.



شدة المرض

وكان عليلاً شديد العلة، فكان ربما يخرج الدم منه وهو راكب حتى تمتلئ سراويله، ومركبه وخفّه.

وقال الربيع أيضاً: كنتُ القيّم بجميع مال الشافعي، ويدي فيه حتى لقي الله، وجعلني في حلّ من جميع ماله ثلاث مرات، وقال وهو مريض: يا بني، إن الغلمان جُفاة، يأتي القوم منهم ليسلّموا عليَّ فيقولون: ليس عليه إذْنٌ، ولا يعلمون علّتي، فإن خفّ عليك أَن تجلس في الغرفة التي على السّلّم، فإذا جاء القوم نزلتَ إليهم فأخبرتَهم بعلّتي، وكان يُثقَب له الفراش والسّدّة، والطست تحتها، فكان إذا جاء القوم نزلتُ إليهم فأخبرتُهم، فيذهبون متوجعين، فإذا صعدتُ إليه يقول: من جاء اليوم؟ فأقول: فلان وفلان، فيقول: جزاك الله عني خيراً يا ربيع، ما صنعتُ بك شيئاً، ولك والله لئن عشت فعلت بك، رحمه الله.

وقال يونس بن عبد الأعلى: ما رأيتُ أحداً لقي من السقم ما لقي الشافعي، فدخلت عليه يوماً، فقال لي: يا أبا موسى، اقرأ عليَّ ما بعد العشرين والمائة من آل عمران، وأخفَّ القراءة، ولا تثقل، فقرأت عليه، فلما أردتُ القيام، قال: لا تغفل عني، فإني مكروبٌ، قال يونس: عنَى الشافعي رحمه الله تعالى بقراءتي بعد العشرين والمائة ما لقي النبي ﷺ وأصحابه، أو نحوه.

اشتدّ بالشافعي، حتى لم يعد يستطيع أن يستقبل زواره، فطلب من تلميذه وخادمه الربيع أن يجلس عنده ويعتذر منهم، وشكره على صنيعه هذا، قال يونس: ما رأيت أحداً لقي من السقم ما لقي الشافعي

بين الرجاء والخوف

وقال الربيع بن سليمان: دخل المزني على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقال له: كيف أصبحتَ يا أستاذ؟ فقال: أصبحتُ من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله وارداً، ولسوء أعمالي ملاقياً.

قال: ثم رمى بطرفه نحو السماء، واستَعْبر، ثم أنشأ يقول:

إليكَ إلهَ الخَلْقِ أرفعُ رغبتي	وإن كنتُ -ياذا المنِّ والجودِ- مُجْرِما
ولما قسا قلبي وضاقتْ مذاهبي	جعلتُ الرجا منّي لعفوك سُلّما
تَعاظَمني ذنبي فلما قَرَنْتُه	بعفوكَ ربي كان عفْوُكَ أعظما
وما زلتَ ذا عفوٍ عن الذنب لم تَزَلْ	تجودُ وتعفو مِنَّةً وتَكَرُّما
ولولاك ما يقوى بإبليسَ عابدٌ	فكيف وقد أغوى صَفيَّك آدما
فإن تعفُ عني تعفُ عن مُتَمرِّدٍ	ظلومٍ غشومٍ ما يُزايل مَأثما
وإن تنتقمْ مني فلستُ بآيسٍ	ولو أدخلتْ نفسي بجرمي جَهَنّما
فجُرمي عظيمٌ من قديم وحادث	وعفوك ياذا العفوِ أعلى وأجْسَما

قبل وفاة الشافعي دخل عليه تلميذه المزني وسأله عن حاله، فأخبره أن المنية قريبة، وأن الأجل شارف على الانتهاء، ثم أنشد أبياتاً التجأ فيها إلى الله عز وجل يعترف بكثرة ذنوبه، ويطلب منه العفو والمغفرة.



5 مواعظه عند موته

موعظة جامعة

وعن المزني قال: دخلتُ على محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى عند وفاته، فقلت له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟

قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، وعلى الله وارداً، وبكأس المنية شارباً، ولسوء أعمالي ملاقياً، فلا أدري نفسي إلى الجنة تصير فأهنيها، أو إلى النار فأعزيها.

فقلت: يا أبا عبد الله رحمك الله عظني.

فقال لي: اتق الله، ومثِّل الآخرة في قلبك، واجعل الموتَ نُصْبَ عينيك، ولا تنسَ موقفك بين يدي الله عز وجل، وكُنْ من الله تعالى على وَجَل، واجتنب محارِمَه، وأدِّ فرائضه، وكُنْ مع الحق حيث كان، ولا تستصغرنَّ نِعم الله عليك وإن قلَّت، وقابلْها بالشكر، وليكن صمتك تفكّراً، وكلامك ذكراً، ونظرك عبرة، اعفُ عمن ظلمك، وصِلْ من قطعك، وأحسنْ إلى من أساء إليك، واصبر على النائبات، واستعذ بالله من النار بالتقوى.

فقلت: زدني، رحمك الله يا أبا عبد الله.

فقال: ليكن الصدقُ لِسانَك، والوفاءُ عِمادَك، والرحمةُ ثمرتَك، والشكرُ طهارتَك، والحقُّ تجارتَك، والتودّدُ زينتَك، والكتابُ فطنتك، والطاعةُ معيشتَك، والرضا أمانتَك، والفهمُ بصيرتَك، والرجاءُ اصطبارَك، والخوفُ جلبابَك، والصدَقَةُ حِرْزَك، والزكاةُ حصنَك، والحياءُ أميرَك، والحلمُ وزيرَكن والتوكلُ درعَكن وتكون الدنيا سجنَك، والفقرُ ضجيعَك، والحقُّ قائدَك، والحجُّ والجهادُ بغيتَك، والقرآنُ محدِّثَك، والله مؤنسَك، فمن كانت هذه صفته، كانت الجنة منزلته.

وطلب المزني من الشافعي أن يعظه قبل موته، فأوصاه بتقوى الله، وتمثُّل الآخرة، واتباع الحق، والصبر والإحسان، وأوصاه بأمور إن التزمها كانت الجنة منزلة له.

هلك المداوي

وقال المزني: دخلت على الشافعي في بعض علله، فقلت له: كيف أصبحت؟

فقال: أصبحتُ بين أمر ونهي، وأصبحت آكل رزقي، وأنتظر أجلي، فقلت: ألا أُدخلُ عليك طبيباً؟ فقال: افعل، فأدخلتُ عليه طبيباً نصرانياً، فجسَّ يده، فحسَّ الشافعي بالعلة في يد الطبيب، فجعل الشافعي يقول:

جاء الطبيب يجسّني فجسسته ... فإذا الطبيب لِما بِهِ من حال

وغدا يعالجني بطول سقامه ... ومن العجائب أعمش كحّال

قال المزني: فما مضت الأيام والليالي حتى مات المُتَطَبِّب، فقيل للشافعي: قد مات المتطبب، فجعل يقول:

إن الطبيب بطبِّه ودوائه
لا يستطيع دفاع مقدور القضا
ما للطبيب يموت بالداء الذي
قد كان يبرئ مثله فيما مضى
هَلَكَ المُداوي والمُدَاوى والذي
جَلَبَ الدواء وباعه ومن اشترى



دخل الطبيب على الشافعي ليعالجه، فما رآه الشافعي علم أنه مريض، فما مضت أيام حتى مات الطبيب، فأنشأ الشافعي يقول أبياتاً يذكر أنه لا أحد يستطيع دفع المقدور، ولو كان طبيباً.



6 نهاية المطاف:

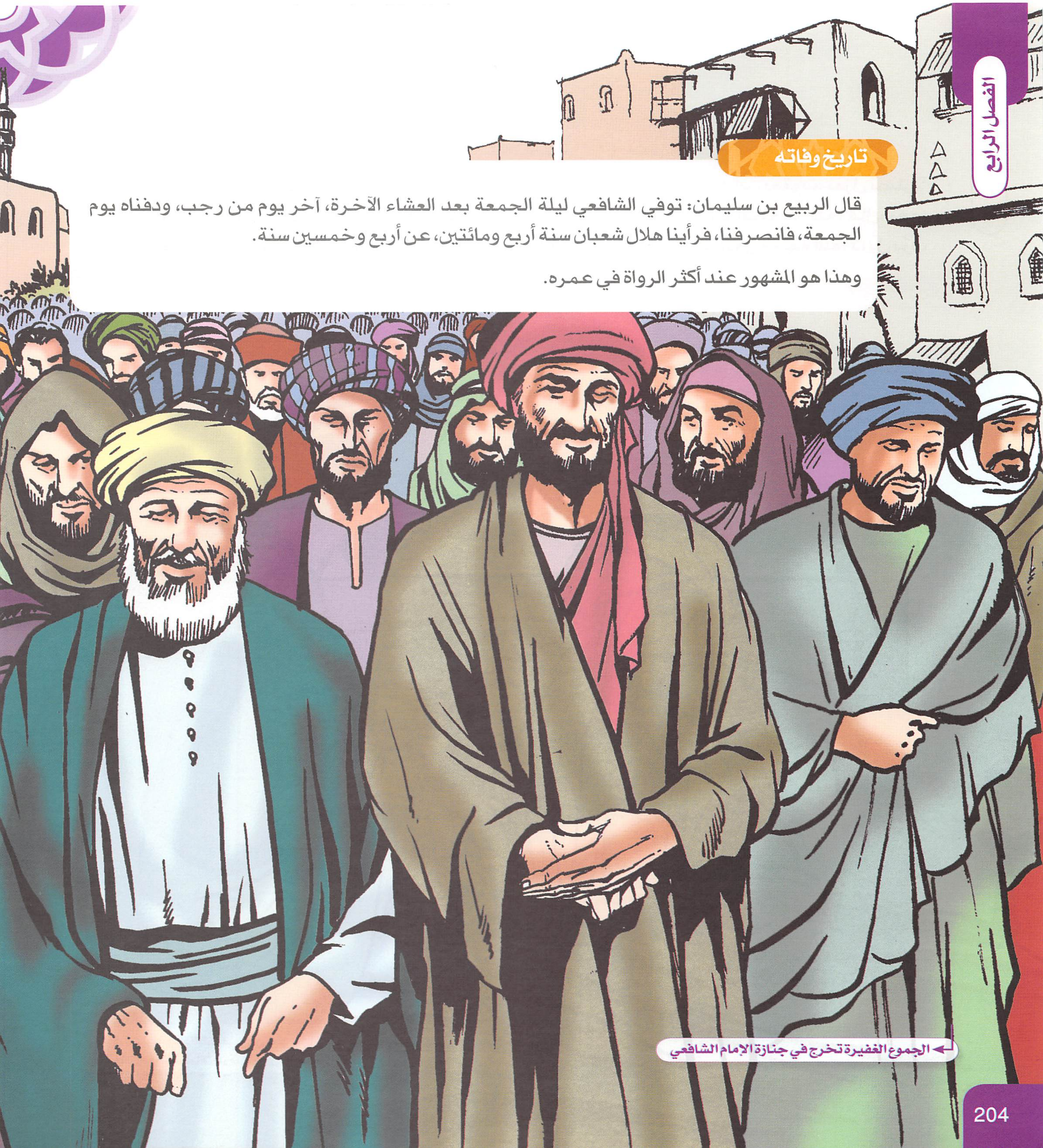
قال الربيع بن سليمان: لما كان من المغرب ليلة مات الشافعي، قال له ابن عمه ابن يعقوب: ننزل نصلي؟ فقال: تجلسون تنتظرون خروج نفسي، فنزلنا، ثم صعدنا، فقلنا: صلّينا أصلحك الله، قال: نعم، فاستسقى -وكان شتاء- فقال له ابن عمه: أمزجه بالماء المُسَخَّن؟ فقال له الشافعي رحمه الله: لا، بل بِرُبِّ السَّفَرْجَل، وتوفي مع العشاء الآخرة، رحمة الله عليه.

لما كانت ليلة وفاة الشافعي، كان عنده ابن عمه، فطلب منه ماء ممزوجاً برُبِّ السفرجل، وتوفي مع العشاء الآخرة.

تاريخ وفاته

قال الربيع بن سليمان: توفي الشافعي ليلة الجمعة بعد العشاء الآخرة، آخر يوم من رجب، ودفناه يوم الجمعة، فانصرفنا، فرأينا هلال شعبان سنة أربع ومائتين، عن أربع وخمسين سنة.

وهذا هو المشهور عند أكثر الرواة في عمره.



الجموع الغفيرة تخرج في جنازة الإمام الشافعي

تشييعه ودفنه

ولما أُخذ -رحمه الله- إلى مثواه الأخير، حمل على الأعناق من فسطاط مصر حتى مقبرة بني زهرة، وتُعرف أيضاً بتربة ابن عبد الحكم.

وفي معجم الأدباء: دفن غربي الخندق في مقابر قريش، وحوله جماعة من بني زهرة، من ولد عبد الرحمن بن عوف الزهري وغيرهم.

وقبره مشهور هناك، مجمع على صحته ينقل الخلف عن السلف في كل عصر إلى وقتنا هذا، وهو البحري من القبور الثلاثة التي تجمعها مصطبة واحدة، غربي الخندق، بينه وبين المشهد، والقبران الآخران اللذان إلى جنب قبر الشافعي، قبر عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة 214هـ، وقبر ولده عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة 257هـ.

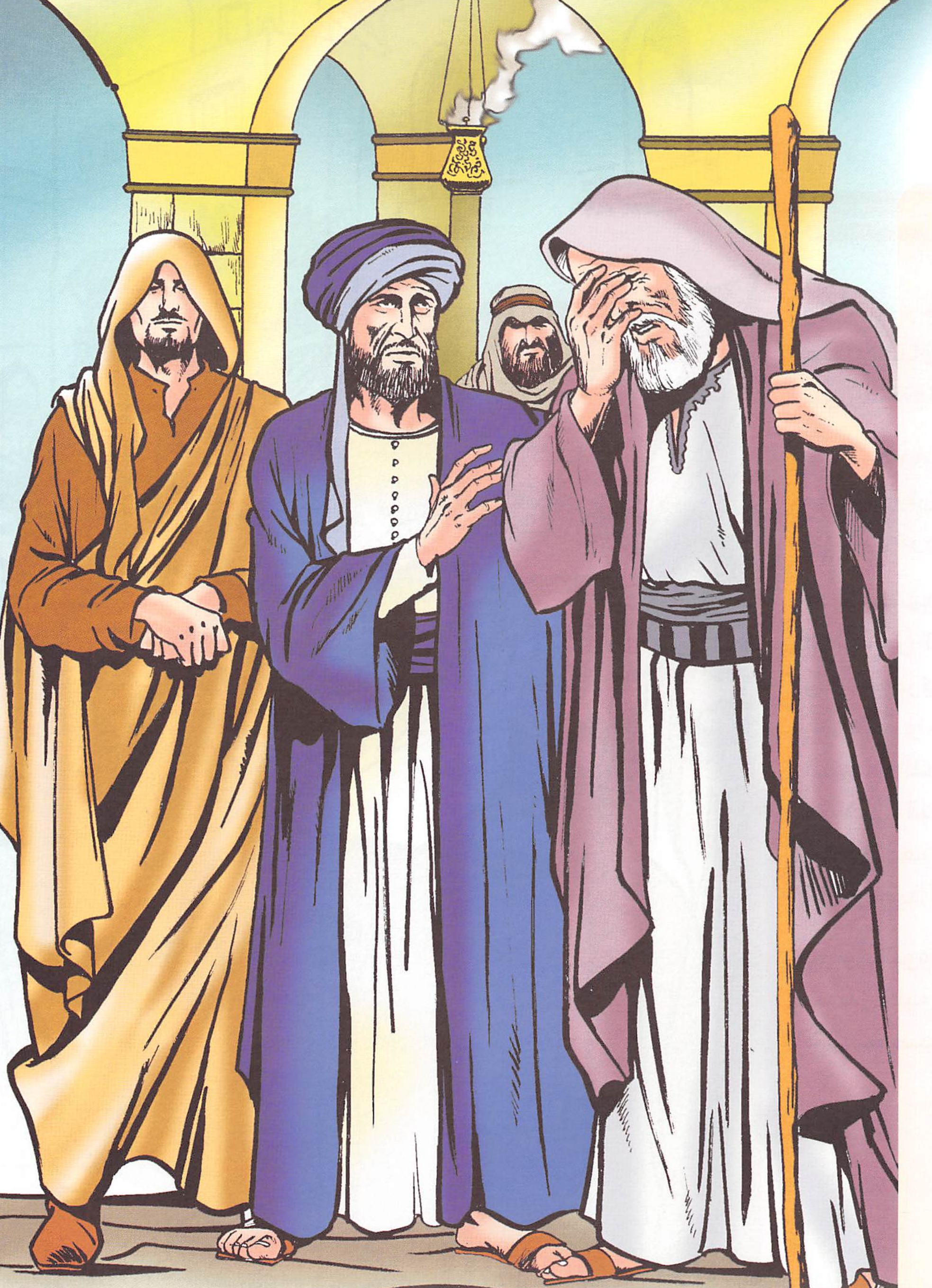
ويقول النووي عن قبره: "وقبره -رحمه الله- بمصر عليه من الجلالة، وله من الاحترام ما هو لائق بمنصب ذلك الإمام".

حُمل رحمه الله إلى مثواه الأخير على الأعناق من فسطاط مصر إلى مقبرة بني زهرة وقبره معروف هناك.



حزن ورؤى

ذهل الناس بوفاة الشافعي، وخيمت الكآبة على وجوه العلماء، وهِيضت أجنحة تلاميذه، وأقفر مجلسه من العَلَم الشامخ الذي يصول ويجول ويبحث ويناظر، وأبلغ من عبَّر عن لوعة الناس بفقده أعرابي وقف على حلقة الشافعي بعد موته بيسير، فقال: "أين قمر هذه الحلقة وشمسها؟ قلنا: توفي، فبكى بكاء شديداً، وقال: رحمه الله وغفر له؛ فقد كان يفتح ببيانه مُغلق الحجة، ويسدّد على خصمه واضح المحجة، ويغسل من العار وجوهاً مسودة، ويوسِّع بالرأي أبواباً منسدّة"، ثم انصرف.



خيمت الكآبة على وجوه الناس بوفاة الشافعي، وأقفر مجلسه من العَلَم الشامخ، جاء أعرابي فوقف على حلقته ثم قال: أين قمر هذه الحلقة وشمسها؟ فقالوا: توفي، فبكى بكاء شديداً ومدحه ثم انصرف.

رؤى الناس في حقه:

لقد رأى كثير من الصالحين، والعباد رؤىً في حق الشافعي، تدل على عظيم قدره، وعلوَ شأنه، وعظيم مكانته، كما تدل على فداحة المصاب بفقده وفقد أمثاله من العلماء العاملين المخلصين، وقد روي كثير من هذه الرؤى نكتفي بذكر بعضها هنا:

قال الربيع: رأيت في المنام أن آدم عليه السلام مات، ويريدون أن يخرجوا بجنازته، فلما أصبحت سألت بعض أهل العلم عن ذلك، فقال: هذا موت أعلم أهل الأرض، إن الله علّم آدم الأسماء كلها، فما كان إلا يسيراً حتى مات الشافعي رحمه الله.

وقال الربيع بن سليمان المصري: حدَّثني أبو الليث الخفّاف –وكان معدلاً عند القضاة- قال: رأيت ليلة مات الشافعي في المنام كأنه يُقال: مات النبي ﷺ في هذه الليلة وكأني رأيته يُغسّل في مجلس عبد الرحمن الزهري في المسجد الجامع، وكأنه يُقال لي: يخرج به بعد العصر، فأصبحت فقيل لي:مات الشافعي، وقيل لي: نخرج به بعد الجمعة، فقلت: الذي رأيته في المنام، قيل لي: نخرج به بعد العصر، وكأني رأيتُ في المنام حين أخرج به كأن معه سرير امرأة رثة السرير، فأرسل أمير مصر ألا يُخرج به إلا بعد العصر، فحُبس إلى بعد العصر.

قال العزيزي: فشدت جنازته، فلما صرت إلى الموضع الواسع رأيت سريراً مثل سرير تلك المرأة رثة السرير مع سريره.

ليلة مات الشافعي رأى أبو الليث في المنام كأنه يقول: مات النبي ﷺ، وأنه يخرج بعد العصر، فلما أصبح قيل له: مات الشافعي، وخرجوا به بعد العصر.

رؤية العزيزي

وعن أبي عبد الرحمن العزيزي قال: رأيت ليلة مات الشافعي: أُتي بنعش وعليه قطيفة وعليه رجل في أكفانه حتى وضع عند المقصورة، فسمعت قائلاً يقول: الليلة مات النبي ﷺ، فلما أصبحنا أُتي بالشافعي على مثل ذلك النعش، في مثل تلك القطيفة، وفي مثل ذلك الكفن.

رؤية الأنطاكي

وعن عثمان بن خرزاد الأنطاكي، قال: رأيتُ فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت، وكأن الله قد برز لفصل القضاء، وكأن الخلائق قد حشروا، وكأن منادياً ينادي من بُطنان العرش: ألا أدخلوا أبا عبد الله، وأبا عبد الله، وأبا عبد الله، وأبا عبد الله الجنة، فقلت لملك إلى جنبي: من هؤلاء؟ قال: أما أولهم: فمالك بن أنس، وأما ثانيهم: فسفيان الثوري، وثالثهم: الشافعي، ورابعهم: أحمد بن حنبل، رضي الله عنهم أجمعين.

عثمان الأنطاكي يكي رؤيته عن الإمام



رؤية عبد الله الهاشمي

وقال عبد الله بن محمد بن يعقوب الهاشمي -وكان صدوق اللسان-: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال: الشافعي المطلبي في الجنة، أو من أهل الجنة.

إن دلت هذه الرؤى على شيء، فإنما تدل على عظيم قدر هذا الإمام وعلو شأنه، وعظيم مكانته، وربما كانت بشرى في حقه، رحمه الله فقد كان من العلماء العاملين المخلصين.

عبد الله الهاشمي يحدث الناس برؤيته التي رآها عن رسول الله ﷺ



الخاتمة

هكذا ودّع الحياة عَلَم من أعلام المسلمين، وإمام من أئمتهم، وعظيم من عظمائهم، بعد أن ترك لنا كنوزاً من العلم، في الفقه وأصول الفقه، وفي غيرهما، من خلال حياة قصيرة بالنسبة للزمن، لكنها كانت حافلة بالنشاط، والجد، بالعمل الدؤوب، والجهد المتواصل، لم يتوانَ عن التعلُّم والتعليم منذ نعومة أظفاره حتى فارق الدنيا، فارقت روحه الحياة، لكن ذكره وعلمه لا يزالان ينبضان بالحياة إلى اليوم، وربما إلى يوم القيامة، رحم الله هذا الإمام الجليل، ونفعنا بعلومه، آمين.



مقارنة فريدة بين الأئمة الأربعة

رحمهم الله تعالى ورضي عنهم

وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
الاسم والنسب	النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي الفارسي (أصله من فارس).	مالك بن أنس بن مالك من بني أصبح، ليست بينه وبين الصحابي الجليل أنس بن مالك قرابة.	محمد بن إدريس الشافعي، يلتقي مع الرسول صلى الله عليه وسلم في جده عبد مناف.	أحمد بن حنبل الشيباني، عربي من شيبان سكن أهله خراسان.
مكان الولادة والنشأة	الكوفة.	المدينة.	ولد أثناء سفر والده في غزة ولكنه من مكة ونشأ فيها.	بغداد.
مولده ووفاته	٨٠ – ١٥٠ هـ	٩٣ – ١٩٧ هـ	١٥٠ – ٢٠٤ هـ	١٦٤ – ٢٤١ هـ
رحلاته	لم تثبت له رحلات.	لم تثبت له رحلات.	المدينة، اليمن، العراق، مصر.	البصرة، مكة، المدينة، الشام، اليمن
الصفات الخلقية	متوسط القامة، أسمر مائل للبياض، طويل اللحية، جميل الطلعة، حسن الصوت، أنيق اللباس، كثير التطيب والتعطر والنظافة.	طويل، عظيم الجسد، شعره أشقر فيه صفرة، شديد البياض، واسع العينين، أشم الأنف، لحيته عظيمة تبلغ صدره، يأخذ من شاربيه ولا يحلقها.	طويل قليل لحم الوجه، طويل العنق، طويل الساقين، أسمر لكنه مشرق، خفيف العارضين، لحيته بقدر قبضة، يخضبها بالحناء الحمراء القانية	طويل، نحيف أسمر اللون، يخضب لحيته بالحناء، يلبس البياض، والعمامة.

وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
أهم الصفات	تاجر ماهر، عالم بالمنطق والفلسفة، وعلوم الجدل، يحب المناظرة والمناقشة، اختار التخصص بالفقه حتى برع فيه.	أنيق، يلبس الحسن من الثياب، ويختار الطيب من الطعام، شديد الإتقان والحفظ، شديد الصبر، قوي العزيمة، مثابر وصابر على العلم، صاحب فراسة ونظر عميق، له مهابة خاصة خصوصاً عند العلماء.	اشتهر بالفراسة والبديهة، صاحب نظر ثاقب، معرفته واسعة بالطب، عالم بالأنساب، قوي الذاكرة، عميق المعرفة، كريم معطاء.	قوي الحفظ، شديد الورع، كثير الزهد، متين العلم، متقد الذهن، اشتهر بالاستقامة والثبات.
من أبرز مشايخه	حمّاد بن أبي سليمان، عطاء بن أبي رباح، ابن شهاب الزهري، نافع مولى ابن عمر، زيد بن علي، جعفر الصادق، عكرمة.	ابن شهاب الزهري، يحيى ابن سعيد القطان، ربيعة الرأي بن عبدالرحمن.	محمد بن الحسن، الليث ابن سعد، الإمام مالك، سفيان بن عيينه، عمرو ابن الحارث، عبدالله بن أبي جعفر.	سفيان بن عيينة، هشيم بن بشير، عبدالرزاق الصنعاني، أبويوسف، يحيى بن سعيد القطان.
المنهجية العلمية	التوسع في مصادر التشريع، التوسع في الرأي والاجتهاد، اشتهر بالقياس والعمل به، له منهج خاص في استخراج الأحكام.	اعتمد أسلوب الأثر، والفتوى الدقيقة، لا يحب أن يكتب عنه كل شيء لخشيته من الخطأ، يرفض التقليد الأعمى، ويحب الاجتهاد، يلتزم بما عليه من أهل المدينة لأنهم أقرب الناس للسنة.	بارع في الفقه وأصوله وفروعه، فقهه مزيج من قوة الرأي عند الأحناف وقوة الحديث عند المالكية، يرى أن للاجتهاد ضوابط ومقاييس.	الدقة في الحديث النبوي، التمسك بالنص وعدم التوسع في الاجتهاد، له آراء مشهورة في العقيدة والتمسك بظاهر النص دون تأويل يلغي المعنى الظاهر.

مقارنة فريدة بين الأئمة الأربعة

رحمهم الله تعالى ورضي عنهم

وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
المواقف السياسية	معارض سياسي، لا يرى بصحة الدولة الأموية، وكان يرى الخلافة لزيد بن علي رضي الله عنهما، وسجن وعذب في سبيل ذلك، ولكنه ثبت على مواقفه مع أنه أُغري بالمناصب، وأيد العديد من الثورات السياسية ضد الحكم الأموي.	اختلط بالخلفاء والسلاطين، وقبل أعطياتهم وهداياهم، ولا يرى حرجاً فيها، ولكنه كان عزيزاً وقوراً أمامهم، حريصاً على فرض الوقار والعزة للعلم أمام الحكام، مال إلى تأييد ثورة محمد ذي النفس الزكية.	بعيد عن السياسة، ويرى أن علي بن أبي طالب في مواقفه في الفتنة، كان على الحق، ويدافع عنه في ذلك.	صاحب مواقف قوية مع الحكام والسلاطين، لم يتنازل حتى مع ما تعرض له من تعذيب، يبتعد عن الحكام، ولا يرغب بزيارتهم أو التقرب منهم ولا يقبل عطاءهم.
من أبرز تلاميذه	أبويوسف (يعقوب بن إبراهيم) محمد بن الحسن الشيباني، زفر بن هذيل.	عبدالله بن وهب، عبدالرحمن بن قاسم، أشهب بن عبدالعزيز، أسد بن الفرات.	الحسن بن محمد الزعفراني، الحسن الكرابيسي، أبوبكر الحميدي، حرملة ابن يحيى، إسماعيل المزني، يوسف بن يحيى البويطي، سليمان المرادي.	ابناه عبدالله وصالح، أحمد بن محمد المروزي، أبو القاسم الخرقي، أحمد بن محمد الأشرم.
أصول المذهب بعد الكتاب والسنة	الإجماع، فتوى الصحابي، الحديث المرسل والضعيف، القياس (للضرورة)، المصلحة المرسلة (للضرورة).	الإجماع، إجماع أهل المدينة، القياس، قول الصحابي، المصالح المرسلة، العرف، سد الذرائع، الاستحسان، الاستصحاب.	الإجماع، قول الصحابي، القياس.	الإجماع، قول الصحابي، القياس، الاستحسان، العرف.

وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
من أمهات الكتب في المذهب	الكافي (وقد جمع كتب ظاهر الرواية وهي: السير الكبير، السير الصغير، الجامع الكبير، الجامع الصغير، الزيادات). المبسوط (شرح الكافي في ٣٠ مجلداً). حاشية ابن عابدين.	الموطأ، المدونة (وهي المعتمدة) الواضحة، العتبية، الموازية، الكافي، مختصر خليل.	الأم، الرسالة، المجموع شرح المهذب، مُغني المحتاج، روضة الطالبين.	المغني، الإقناع، الروض المقنع، الفروع، دليل الطالب، مختصر الخرقي.
من أبرز علماء المذهب	محمد بن عابدين، أبو جعفر الطحاوي.	سحنون التنوخي، يحيى الليثي، أبوبكر بن العربي، ابن عبدالبر، أبو مروان الماجشون.	أبو إسحاق الإسفراييني يحيى بن زكريا النووي، تقي الدين السبكي، العز بن عبدالسلام، أبوحامد الغزالي.	أبوبكر الخلّال، شمس الدين بن قدامة، شيخ الإسلام ابن تيمية، ابن قيم الجوزية، محمد بن عبدالوهاب.
أماكن انتشار مذهبه اليوم	شبه القارة الهندية، العراق، الشام، مصر، جنوب شرق آسيا، روسيا، الصين، تركيا، وغيرها.	مصر وشمال إفريقيا، الحجاز، الخليج، السودان.	مصر، العراق، فارس، ماليزيا، اليمن، الحجاز، عدن، باكستان، الشام، جنوب شرق آسيا وغيرها.	نجد وقليل من الشام، والعراق، ومصر، والخليج، وغيرها.



الكتاب	اسم المؤلف	دار النشر
الشافعي، حياته وعصره، أراؤه وفقهه.	محمد أبو زهرة	دار الفكر العربي، الطبعة الثانية
مناقب الشافعي	البيهقي	دار التراث، الطبعة الأولى
الإمام الشافعي	عبد الغني الدقر	
تاريخ المذاهب الإسلامية(الجزء الثاني في تاريخ المذاهب الفقهية)	محمد أبو زهرة	دار الفكر العربي
ديوان الشافعي	حققه وقدّم له إسماعيل اليوسف	دار الخير




دستور السعادة الزوجية
مع الدليل العملي والإرشادات الأسرية
حقق حلمك
في الوصول إلى الجنة

ريّح بالك

حقق حلمك
في حفظ القرآن الكريم

181
بطاقة للتميز الإداري

كنز في أعماقك

قوانينك الخاصة

أفكار مختلفة.. للنجاح

القراءة التصويرية
اقرأ كتاباً في ساعة

الذاكرة

الألعاب التربوية

الذكاء الوجداني

أسرار القوة الذاتية

قمم النجاح

100
مائة شمعة لا تنطفئ

صناعة نجوم الحياة

خفف وزنك!

زاد المرتل

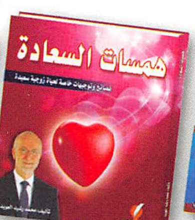
كوني مختلفة

قوة الإقناع

اقترب من الله..!

اسمي طفل

أنت أيضا تقدرين

كراكيب الحياة

همسات السعادة

القراءة الذكية

فكّر بطريقة مختلفة

الفوائد

همسات النجاح

شيكات المحبة

أتعلم ديني
مع أحمد ولينا

افعل شيئاً مختلفاً
do
SOMETHING
different


القيادة متكاملة الجودة


الإبداع الفكري